ميخائيل نعيمة

أبو بطة

نوفل

أبو بَطّة

الطبعَـة العـاشِرَة

١٩٩٣

نـوفـل
بناية نوفل ـ شارع المعماري
تلفون (الحمرا): ٨٩٨ ٣٥٤ ـ ٣٩٤ ٣٥٤
(سن الفيل): ٠٧٤ ٤٩٩
تلكس: ٢٢٢١٠ نوستن
ص.ب: ١١/٢١٦١ أو: ١١٣/٥٤٢٢
بيروت ـ لبنان

أبو بطّة

في المدن الشرقية الكبيرة ، وبالأخصّ في الموانىء البحرية ، طبقة لا يستهان بها من العمال تعيش على هامش الحياة ، وهي في الواقع من متنها . فعلى أكتافها وسواعدها وظهورها يقوم جانب كبير من الحركة التجارية في تلك المدن ، ولكنها ممتهَنة من التجار وغير التجار بالسواء . حتّى إنّك لا يندر أن تسمع أحدهم يتكلّم عن عامل من أولئك العمال فيشفع كلامه بقوله « أجلّك الله » على حدّ ما يفعل إذا حدّثك عن رِجله أو حذائه . ولا عجب ، فالشرق ما أدرك حتّى اليوم أن لرِجله فضلاً على رأسه لا يقلّ عن فضل رأسه على رجله . فالرِّجل التي تحمل كلّ أثقال الجسد هي في الغالب أنبل من رأس تحتله الحساسة ، وأطهر من قلب يعشش فيه المكر ، وأصدق من لسان تحرّكه النجاسة ، وأشرف من يد تهدم بيوت الغير لتبني بيتها من أنقاضها .

أولئك العمّال هم العتّالون ، ومنهم صديقي أبو بطّة .

دعوه كذلك لتورّم مزمن في « بطّة » ساقه اليمنى جعل حجمها ضعفي حجم شقيقتها اليسرى أو يزيد ، وقد تشابكت فيها عروق ثخينة متعرجة تبدو لزرقتها كأنّها محقونة بمحلول من النيل .

وأشدّ ما تكون هذه العروق بروزاً وانتفاخاً في أيام الحرّ ، وعندما ينهض صاحبها بحمل من الأحمال الثقيلة التي تفرّد بحملها . ومتى عرفت أن بطّة صديقي السليمة لا تدانيها في الحجم وقوّة العضل بطّة عتّال آخر في كلّ بيروت تمكّنت من أن تصوّر لنفسك حجم البطّة العليلة .

أما سبب التورّم في بطّة أبي بطّة فعائد على زعمه إلى لدغة عقرب كادت تودي بحياته لو لم تتداركه خالته بالماء الساخن والثوم وغيرهما من العلاجات البيتيّة . وكان إذ ذاك طفلاً يحبو . وقد فقد والدته ووالده في يوم واحد قبل ذلك بقليل . فربي كيفما اتفق مع أولاد خالته .

لعلّي أسيء الظنّ إليك وإلى صديقي أبي بطّة إن أنا أوهمتك أن شهرته الواسعة في السوق ، ومكانته السامقة بين العتّالين ، ترتكزان أوّلاً وآخراً على ضخامة بطّته . والحقيقة هي أن تلك البطّة دعامة واحدة من دعامتين تقوم عليهما شهرته ومكانته . أما الثانية فهي القدرة البدنية العجيبة الكامنة في عضلاته المفتولة وعموده الفقري ، تدعمها ثقة بالنفس

لا حدّ لها . والروايات التي يرويها لك التجار عن تلك القدرة لا تقع تحت حصر ، وكان من الطبيعي أن ترتاب في صحة الكثير منها ، لولا أن زملاء أبي بطّة ومنافسيه في مهنته ما كانوا أسبق الناس إلى تزكيتها . فالعتّالون يروون لك الرواية تلو الرواية عن الأثقال العظيمة التي قام بنقلها أبو بطّة ، وكان يعجز عنها أكبر الجِمال وأقدر البغال . وكلّهم لا يخجل من الاعتراف له بالتفوّق معزّين أنفسهم عن قصورهم في مجاراته بقولهم إنّه « فلتة من فلتات الطبيعة » . أمّا أبو بطّة نفسه فما كان يحدث عن قدرته ، شأن كلّ العظماء الذين يكرهون التحدث عن عظمتهم .

وأنت لو رأيت أبا بطّة لما رأيت غير عتّال كسائر العتّالين ، بل قد تستخفّ به لأوّل نظرة تلقيها عليه . فهو دون الربع من الرجال . والناظر إلى وجهه الشاحب وعينيه الصغيرتين الغائرتين ، وإلى لحيته الكثّة التي لا تدنو منها الموسى أكثر من مرّة في الشهر أو مرّتين ، وفي رجليه القصيرتين الحافيتين ، لا يكاد يحسبه يقوى على رفع حقيبة أثقل ما فيها ثياب حريرية وأدوات زينة لسيّدة من السيّدات الأنيقات . إلاّ إذا أمعن النظر في رقبته الغليظة اللاصقة بكتفيه ، وفي يديه السمينتين بأصابعهما القصيرة الثخينة ، وفي صدره الرحب ومنكبيه العريضين ؛ فقد تلوح له في كلّ هذه أمارات القوّة . ولا

عجب فلكم خدعتنا الظواهر عن البواطن !

كان أوّل عهدي بسيّد العتّالين منذ عقد ونصف العقد من السنين ، إذ كلّفته نقل حقيبة خفيفة مسافة لا تتجاوز المائة من الخطوات ، ثمّ نقدته أجراً كان على ما بدا لي فوق ما توقّعه بكثير ، فما كاد يصدّق عينيه ، والتفت إليّ وقال :

« ممنون يا أستاذ . أنت تعرف قدر الأوادم » .

فأحببت مداعبته وقلت :

« ومن أين عرفت أنّني أستاذ ؟ » فحدّجني بعينيه الزرقاوين وابتسم ابتسامة الرضا والسخرية وقال : « لا تستخفّ بي لأنّني عتّال . فأنا أميّز بين الأستاذ وغير الأستاذ » .

فأجبته :

« ولكنني لست بالأستاذ . إن أنا غير آدميّ مثلك . »

فحدّجني ثانية وقال بدهشة : « مثلي ؟ معاذ الله . أيستوي العتّال والأفندي ؟ ألست محامياً ؟ » .

قلت : « لا » .

— « ولا طبيباً ؟ » .

— « لا » .

— « ولا مهندساً ؟ » .

— « كلاّ » .

— « ولا تاجراً ؟ » .

— « كلاّ . ولا تاجراً » .

— « ولا معلّماً في مدرسة ؟ » .

— « ولا معلّماً في مدرسة » .

— « ولا موظّفاً في الدولة ؟ » .

— « ولا موظفاً في الدولة » .

عندئذ شدّ بكلتا يديه على طرفي حبله الملقى على عاتقه وقال بلهجة اليائس :

« حيرتني والنبي . إذن ماذا تعمل لكسب معاشك ؟ »

قلت :

« أكتب » . فأشرقت أساريره كمن اهتدى إلى حلّ لغز معقّد وقال بلهجة الظافر :

« آ ! صاحب جريدة . قل لي من الأوّل » .

وعندما نفيت زعمه الأخير ، وأفهمته أنني أدوّن أحاسيسي وأفكاري ثمّ أنشرها كتباً في الناس ، عاد فارتبك أشدّ من ذي قبل . وبعد فترة من الإطراق رفع بصره إلى فوق وتنهّد وقال :

« إذن لا تفعل شيئاً . ثمّ تكتب عما تفعل وتعيش ممّا تكتب ! » وبعد هنيهة : « سبحان مقسم الأرزاق ! هنيئاً لك يا أستاذ » .

فضحكت وافترقنا على ذلك لنعود فنلتقي غير مرّة ، ونتبادل أحاديث طويلة كان منها أن شرّفني أبو بطّة بثقته وصداقته . فعرفت أنّه تجاوز السبعين من عمره ، وأنّه تزوّج في صباه من ابنة عمّه فنسلت له أربع بنات وصبيّاً وماتت ، فتزوّج من شقيقتها التي أنجبت له ثلاثة صبيان وماتت . فما كان منه ، وقد بلغ الخامسة والستين ، إلاّ أن كتب كتابه على فتاة من قريته دون العشرين ، وهذه ما تزال حيّة وقد جاءته بابنتين .

عرفت كذلك عن أبي بطّة أنّه خدم عشر سنوات من عمره الطويل في الجيش العثماني أيام عبد الحميد ، فاشترك في حملة على اليمن ، ومرّة وقع في الأسر بأيدي الرّوس ، وأن كلّ ما ادّخره من المال لشيخوخته لا يزيد على الإحدى عشرة ليرة ذهبيّة عثمانيّة يحملها أبداً في هميانه الذي لا يفارق خصره ولا عند النوم . وعرفت أيضاً أنّه على جانب عظيم من التديّن ، يواظب على الصلوات في مواقيتها ، ولا يفوته شيء من المراسم المفروضة على مسلم شيعيّ ، وهو يحرّم على نفسه السرقة إلاّ عند الضرورة التي لا ترحم ، ويحلّل الكذب في أكثر الظروف . وله في ذلك اجتهاد خاصّ ، فهو يقول إن خميرة الصدق في العالم قد أفسدها الكذب ، فأصبح صدق الصادق كذباً عند الكذوب ، لذلك كان الصدق في كلّ حين

ضرباً من الجنون ، ومجلبة للاحتقار والخسارة والانزواء عن الناس .

باح لي أبو بطّة بالكثير من أسرار حياته ما خلا سرّاً واحداً ما تمكّنت من حمله على البوح به ، فقد لحظت في السنوات الأخيرة أن تلك الابتسامة البلهاء التي ما كانت تفارق وجهه فتلطّف إلى حدّ ما من بشاعة ذلك الثؤلول الأسود على الطرف الأيسر من شفته السفلى — أجل ، إن تلك الابتسامة قد غابت خلف نقاب كثيف من القلق والعبوسة . فأبو بطّة ، على غير عهدي به ، قليل الكلام ، قليل الحركة . يصرف جلّ نهاره رابضاً على عتبة المخزن الذي استقلّ من زمان بعتالة بضائعه ، لا يفارق الغليون شفتيه ، ولا الحبل كتفيه . و « الضهارة » على ظهره (وهي بمثابة الجُلّ للدابّة) قد تهرّأت ، والعصبة التي يعصب بها رأسه قد تهلهلت فتدلّت خيوطها في كلّ جانب . وهو ينكت الرصيف « بالشرشور » في يده اليمنى نكتاً متواصلاً . والشرشور في لغة العتّالين هو الكلاّب من الحديد أو الفولاذ يردّون به الأثقال إلى ظهورهم .

بلى ! لقد تغيّر صديقي أبو بطة . ومنذ أيام حسبتني أدركت ، أو أوشكت أن أُدرك ، سرّ ذلك التغيّر . فقد خطر لصاحب المخزن أن يدعو عتّالاً غير أبي بطّة لنقل صندوق ثقيل ما ظنّه وهو في الخامسة والثمانين يقدر على حمله . واتّفق

أن العتّال الغريب ما كان غير بِكْر أبي بطّة من زوجه الثانية ، واسمه حسين . وهو من حيث القدرة البدنيّة يكاد يكون وريث والده .

ما إن دخل حسين المخزن وألقى يده على الصندوق حتى وثب والده من مربضه على العتبة كأنّه الذئب الضّاري أو النمر الغضبان . ومن غير أن يوجّه كلمة واحدة إلى ابنه صفعه صفعة مدوّية وزجر : « اغرب من هنا يا كلب . ما مات أبوك بعد ! » وانكبّ على الصندوق الثقيل وما زال يعالجه حتى رفعه بيديه إلى حيث تمكّن من حمله على ظهره . وخرج به متباطئاً ، ولكن بركبتين ثابتتين . فالتفتُّ إلى بطّته المتورّمة وإذا بها تكاد تنشقّ .

وعاد أبو بطّة إلى مربضه ولكن الابتسامة البلهاء لم تعد إلى وجهه . فحاول صاحب المخزن أن يُقنعه بأن الخمس والثمانين من العمر غير الخمس والثلاثين ، فجدير به أن يتخلّى عن الأحمال الثقيلة لابنه حسين ، وأن يكتفي بأحمال تتناسب وسنّه ، وإنّه لشرف له كبير أن يرث مجده في دنيا العتالة ابنه من صلبه لا رجل غريب عنه . فما كان من أبي بطّة إلاّ أن تمتم بحنق واشمئزاز « كلب ! » وانصرف إلى نكت الرصيف بالشرشور .

وكان أمس — أمس الذي بات علَماً في تاريخ الكون الأكبر

وتاريخ العتالة في بيروت . واتّفق لي أن ذهبت لأبتاع حاجة من المخزن الذي وقف أبو بطّة جلّ عمره على خدمته . فألفيت صديقي ، على عادته ، رابضاً على العتبة وفي يده رغيف من الخبز يقضمه على مهل بما تبقّى في فمه من أسنان بالية . حيّيته بلطف فما هشّ ولا بشّ ، بل تظاهر كأنّه لم يرني ولم يسمعني ، وما دخلت المخزن حتّى بادرني صاحبه بقوله :

« جئت في وقتك . فما يستطيع غيرك أن يخرجنا من هذا المأزق . أترى ذلك البرميل من زيت النفط ؟ (وأشار إلى برميل كبير ملقى على الأرض) إن صاحبك أبا بطّة يجبن عن حمله ، ويؤكّد أن ليس في المدينة كلّها عتّال يقوى عليه . ويأبَى أن نأتي بابنه حسين ليحمله . أفلا تلطّفت وأقنعته ؟ » .

ما كاد صاحب المخزن يُنهي كلامه حتّى وثب أبو بطة من مربضه وصاح ، بل زمجر ، واللقمة ما تزال في فمه يحاول بلعها فلا تنبلع :

« نادوه . نادوه . لا حسين ولا جدّ حسين يستطيع أن يحمله ويخطو به خطوة واحدة . »

وجاءوا بحسين . فألقى نظرة على البرميل ، ثمّ دحرجه قليلاً ، ثمّ حاول رفعه من جانب واحد ، ثمّ جمد مكانه برهة في تردّد ووجل . وأخيراً تنحّى جانباً وقال بخجل وانكسار قلب : « ولا أبي في ربيع مجده كان يستطيع أن يقوم به » .

عندئذ تقدّم أبو بطّة من البرميل وبحركة عصبيّة من يده اليمنى دفع بابنه بضع خطوات إلى الوراء متمتماً : « كلب ! اليوم أعرّفك قدر نفسك » ، ثمّ بصوت عالٍ : « إيتوني بمن يرفعه إلى ظهري » فجاءوه بعتّالين آخرين علاوة على حسين . والثلاثة رفعوا البرميل وأوثقوه جيّداً بالحبل إلى ظهر أبي بطّة . ولحظتُ أن العتّالين وصاحب المخزن ومستخدميه قد حبسوا أنفاسهم مثلي ، وسمّروا أبصارهم على بطل المشهد الرائع وقد انتفخت أوداجه ، وطفر الدم إلى وجهه ، ونفرت العروق في بطّتيه – السليمة والمتورّمة – حتّى كأنّها الحبال المفتولة . وليس من يصدّق أنّه سيخطو بالبرميل خطوة واحدة .

ولكن أبا بطة خطا بالبرميل خطوة ، ثم أخرى ، ثم أخرى ، واجتاز العتبة إلى الرصيف فصاح به صاحب المخزن : « احترس يا أبا بطّة . فما في البرميل يساوي ألف ليرة عدّاً ونقداً » . أمّا الآخرون فما تمالكوا من الهتاف : « عاش أبو بطّة ! عاش بطل العتّالين وقاهر الخمس والثمانين » .

وبغتة رأيت أبا بطّة يجمد مكانه وسمعته يتفل قائلاً : « تفُو على الخمس والثمانين . . . » وأبصرت أن ما تفله كان دماً أحمر . ثمّ أبصرته يهوي فينطح الأرض بجبينه . وأبصرت البرميل يتدحرج عن ظهره فيمسّ طرف حذاء سيّدة كانت

واقفة على الرصيف . وأبصرت السيّدة تنقبض سحنتها فتنقضّ على أبي بطّة وتركله ركلتين قائلة عند كلّ ركلة : « وحش ! » ثمّ أبصرت صاحب المخزن يهرول صائحاً في العتّالين : « البرميل . البرميل . تداركوا البرميل . ألف ليرة » .

وكان آخر ما أبصرت جثّة هامدة تجمّد النجيع على شفتيها وجبهتها ، والتفّ الحبل حول عنقها .

وكان آخر ما سمعت نداء المؤذّن : « ألله أكبر » .

المسيو ألفونس

انصرف المدعوون إلى حفلة تدشين القصر الجديد نحو الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل . وكان مدير الجوقة الموسيقيّة – وهو فرنسي من كورسيكا – آخر المدعوّين . فراح يكيل الثناء والدعاء لربّ القصر وربّته لأنهما أجزلا له العطاء . وطال وقوفه في الباب ، وطال ثناؤه ودعاؤه ووداعه إلى حدّ أن ربّة القصر فقدت صبرها ولطفها واتزانها ؛ فقطّبت حاجبيها وقالت بلهجة فيها الكثير من السأم والتهكّم :

– ألعلّك من الذين لا ينامون يا مسيو ألفونس ؟

فما كان من المسيو ألفونس إلاّ أن وضع الكمنجة التي كانت تحت إبطه على عتبة الباب . وضعها بمنتهى الرفق والتأني ، وراح يفرك يديه فركاً عصبيّاً ، ثمّ أجاب بلسان متلجلج يتصنّع الضحك :

– أجل . أجل . وكمنجتي كذلك في حاجة إلى النوم . هه . هه .

– وإذن تصبحان على خير ، أنت وكمنجتك يا مسيو ألفونس .

قالت السيدة ذلك وأدارت ظهرها إلى الرجل ، ومشت بخطوات سريعة في البهو الفسيح العابق بالطيوب والمتلألىء بالأنوار ، فما لبثت أن غابت خلف باب حجرة من حجرات القصر الكثيرة .

عندها عاد المسيو ألفونس إلى كمنجته فرفعها إلى إبطه ، وشدّ عليها بذراعه ، ومن غير أن يتزحزح من مكانه تنهّد وقال كمن يخاطب نفسه :

— ما أقسى القدر !

وبغتة انتبه إلى أن ربّ القصر ما زال واقفاً بالقرب منه ، فأجفل وارتبك وهمّ بالانصراف على الفور من غير أن ينبس بكلمة . لكنه عاد فرأى من الواجب أن يقول شيئاً — وإن تافهاً — ليصرف ذهن صاحب الدار عن شكواه العفويّة من القدر وقساوته — تلك الشكوى التي ما كان يحسب حين فاه بها أن أذناً غير أذنه ستسمعها :

— معذرة يا سيدي . لقد أطلت الكلام . وأطلت الوقوف في الباب . والليل يكاد يشيب . وسيدي ، لا شك ، يقول في قلبه : « ما أثقل هذا الإنسان ! »

— لا يا مسيو ألفونس . ولكن . . .

— ولكن قد تجاوز المسيو ألفونس كلّ حدود اللّياقة . معذرة يا سيدي ، ونوماً هنيئاً . تصبح على خير .

وهمّ ألفونس ثانية بالانصراف . ولكن ربّ الدار استوقفه هذه المرّة ليستفسره السبب في شكواه من قساوة القدر :

ــ أهنالك حاجة أستطيع قضاءها لك يا مسيو ألفونس ؟

ــ لا يا سيدي . لقد غمرتني بفضلك ولطفك وكلّ حاجاتي مقضية من كرم الله .

ــ إذن ما بالك تشكو قساوة القدر ؟

ــ لست أشكوها على نفسي يا سيدي . فصفحتي انطوت ، أو تكاد . لقد ودّعت عامي السبعين منذ يومين .

ــ لا تشكو قساوة القدر عليك ؟ فعلى من إذن تشكوها ؟

ــ على الناس . على . . .

وتلعثم ألفونس . ثمّ أخذته نوبة من السعال المصطنع . فأحس ربّ القصر أن محدّثه يريد الإفضاء إليه برأي أو بخبر . ولكنه يتهيّب الموقف ولا يدري من أي الأبواب يقتحم موضوعه .

ــ تكلّم يا مسيو ألفونس . من شرب البحر لن يغصّ بالساقية ــ من سهر حتّى الثالثة بعد منتصف الليل لن يضيره أن يسهر حتّى الثالثة والربع .

قال ربّ القصر ذلك ، ثمّ عاد فأنّب نفسه على تشوّقه الفجائي إلى استطلاع ما في ضمير ألفونس . أما كان الأحرى لو ودع وانصرف إلى مخدعه الزوجي وترك ألفونس ينصرف في سبيله ؟

ولكن ألفونس — وقد استأنس بما أبداه ربّ القصر من شوق إلى سماعه — عاد فوضع الكمنجة في تأنّ على العتبة وتنحنح وقال :

— ليعذرني سيدي. إنّني رجل ابتلاه ربّه ببليّتين عظيمتين : حبّ الموسيقى ، وحسّ باطني مزعج .

فضحك ربّ القصر لنعت ألفونس حبّه للموسيقى بالبليّة. وشاقه أن يعرف شيئاً عن « البليّة » الثانية فقال :

— وماذا تعني يا مسيو ألفونس بالحسّ الباطني ؟ ولماذا تنعته بالمزعج ؟

— أعني أنّني أحسّ الأشياء على غير ما يحسّها الناس . وذلك يسبّب لي الكثير من الانزعاج في علاقاتي مع الناس . مثلاً : إن ما سأفضي به إليك سيزعجك ويزعجني من غير شكّ . ولكنني لا أستطيع كتمانه لأنّني أحببتك يا سيدي ، وأحببت السيدة قرينتك . فأنتما في نظري جديران بكلّ خير . إلاّ أن الأقدار تقول عكس ما أقول .

عندها فتح ربّ القصر عينيه وأذنيه وأحسّ شيئاً من القلق في فكره والانكماش في قلبه .

— تكلّم يا مسيو ألفونس . تكلّم ولا تخشَ أن تزعجني .

— ليعذرني سيدي . فأنا لا أقصد له إلاّ الخير . ولكن الأقدار تقصد غير ما أقصد . فقد رأيت الليلة سيدتي ربة هذا

القصر تراقص الكثير من الرجال ما بين شبان وكهول .

– وأيّ بأس في ذلك ؟ ألعلّك ما رأيت بعد في حياتك سيدات يراقصن رجالاً ؟

– كيف لا وقد أنفقت أكثر من نصف عمري في السهرات الراقصات ؟ ولكنني رأيت سيدتي ترقص مع شاب طويل ، نحيل ، جميل ، على أنفه نظارتان في إطار من ذهب . فلتحذره !

– ويحك . ذلك الشاب هو شقيقها .

– لست أدري . ولكن ذراعه على خصرها كانت تظهر لي في شكل أفعى كلّما وقعت عليها عيني . وكانت الأفعى تنهشها نهشاً .

– أما كنت ترى مثل ذلك في غير الرجال الذين راقصتهم قرينتي ؟

– أبداً !

– اعذرني يا مسيو ألفونس إذا قلت لك إنّك تهذي . فالشاب من خيرة شبابنا . وهو شقيق قرينتي الأوحد . وكلاهما مضرب المثل في هذه المدينة بمحبتهما كلّ منهما للآخر .

– لست أدري . ذلك ما أبصرته بعيني .

– لعلّك شربت من الشمبانيا فوق ما تتحمّله كبدك وأعصابك .

ـ قد يكون . قد يكون . اعذرني يا سيدي .

وانحنى ألفونس فتناول كمنجته عن العتبة وتأبّطها . ثمّ انحنى مودّعاً وانصرف .

دخل ربّ القصر مخدعه الزوجي فألفى زوجته لا تزال يقظى في انتظاره . وعندما أخبرها بما كان بينه وبين المسيو ألفونس كادت تتفتّت أضلاعها من شدّة الضحك . وشاركها هو كذلك في ضحكها . ثمّ راحا يستعرضان السهرة ويتذاكران أدوار حياتهما منذ هجرا وطنهما إلى البرازيل ، فلا يكادان يصدقان أنّهما بلغا ما بلغاه من الثروة والجاه في سنوات معدودات ، وأنّهما تمكّنا من بنيان هذا القصر الذي ليس له في البلاد كلّها من مثيل . حقّاً إنّ الحظّ قد خدمهما في كلّ شيء إلاّ في قضيّة واحدة . فهما بدون ذرّيّة . وبقيا يتذاكران الماضي والحاضر إلى أن اشتدّت وطأة النعاس على أجفانهما ، فاستسلما للنوم .

*

بعد أسبوع كان القصر يعجّ بوفود المعزّين . وكانت ربّة القصر المجللة بالحداد من أمّ رأسها حتّى أخمصيها ، تتقبّل التعازي بعينين مقرّحتين وقلب كسير ، وإلى جانبها شقيقها وقد بدا كما لو كان أشدّ حزناً منها على زوجها الذي قضى في حادث مروع من الحوادث التي تطرأ على السيارات

وراكبيها . والذي شاع عن وفاة الرجل أنّه خرج وحده للنزهة في سيارته . وقد أصرّ على أن يسوقها بيده . والمعروف عنه أنّه كان من أمهر من أمسك بمقود سيارة . وفي اليوم التالي وجدوه والسيارة محطمين أشنع تحطيم في قاع وادٍ سحيق تمرّ الطريق في أعاليه . وبعد الفحص والتدقيق استنتجوا أن عطلاً طرأ على مقود السيارة إذ بلغت عطفة في الطريق ، فتدهورت في الوادي السحيق ، وكان ما كان .

*

وفي مقهى منزوٍ متواضع من مقاهي المدينة كان المسيو ألفونس وأربعة من مواطنيه الكورسيكيين يشربون الجعة ويتندرون بأخبار الساعة . وكان أن جرّهم الحديث إلى مقتل صاحب القصر . فقال ألفونس :

– لقد تنبّأت بوقوع هذا الحادث منذ أسبوع .

وعندما قرأ الدهشة على وجوه سامعيه ، تابع كلامه قائلاً :

– وأنا أعرف الذي قتله . ولكنني لا أستطيع أن أبوح باسمه ، إذ ليس من شهود . ولو أنّني أفضيت إلى النيابة العامة بما أعرف ، ومن أي السبل عرفته ، لما صدقتني النيابة . وقد تحسب أن لي ضلعاً في الجريمة ، فتزجّ بي في السجن .

وأراد ألفونس أن يتوقّف في حديثه عند ذلك الحدّ . ولكن جلساءه راحوا يطلبون المزيد بإلحاح . فاستأنف الكلام وقال :

– إنّني رجل ابتلاه الله ببلايا ثلاث : حبّ الموسيقى ، والحسّ الباطني المزعج ، والتقاط الأحلام العجيبة في المنام : ففي الليلة السابقة للحادث أبصرت في نومي سيارة تجري في بطن وادٍ وليس فيها غير سائقها . ثمّ رأيت السيارة تتوقّف لتلتقط رجلاً كان يمشي وحده في اتجاه معاكس لسيرها . وركب الرجل إلى جانب السائق . وعندما بلغت عطفة على شفير هاوية ، توقفت السيارة كأن عطلاً طرأ على محركها أو على مقودها . فنزل منها الرجل الغريب ، والتفت ذات اليمين وذات اليسار ، ثمّ دفعها بكلّ قوّته إلى الهاوية – ذلك ما رأيته في نومي .

فسأله أحد الأربعة بشيء من الدهشة :

– أتعني أن الرجل لاقى حتفه على الشكل الذي رأيته في منامك ؟

– ذلك ما أعنيه بالتمام .

– أوَتعرف مَن هذا الغريب الذي التقطه في الطريق وأركبه بجانبه ؟

– أعرفه . هو ابن حميه – شقيق زوجته .

عندئذ ضحك الجميع من ألفونس قائلين إن شقيق زوجة الفقيد رجل مشهور بثروته ومشهود له بطيب أخلاقه وبمحبته المتفانية لشقيقته وصهره . فليس من المعقول أن يقدم على عمل

كذلك العمل . ومن ثمّ فلا مسوّغ لعمله .

ولم يتمكّن المسيو ألفونس من إخفاء امتعاضه من شكّ رفاقه في صحّة تفسيره لمنامه ، ولم يجد حجّة يدفع بها شكّهم أقوى من أن يقول :

– لكم أن تصدقوني ، ولكم ألاّ تصدقوني . أما أنا فواثق ممّا أقول . ولقد سألت بعض الواقفين على أحوال شقيق زوجة الفقيد فقيل لي إنّه يتخبّط في ضائقة مالية قد تودي بمتاجره الواسعة وتقضي على سمعته ومركزه بين الناس . وإن كبرياءه لا تطاوعه على إعلان إفلاسه ، ولا على الاستعانة بأصدقائه . فلا عجب أن يكون قد دبّر لصهره مثل تلك النهاية كي لا يرقى إليه الشكّ ، وكي تنتقل ثروة صهره إلى شقيقته ، فلا تجد شقيقته من يدير ثروتها غيره . وهكذا ينجو من الإفلاس ، من غير أن يدري أحد أنّه أشرف على الإفلاس . ذلك ما أقدّره ، بل ذلك ما أُقسم عليه أنّه الواقع بعينه .

وسكت ألفونس ، ثم أخذ كأسه بيده . وبعد أن جرع ما تبقّى فيها من الجعة قال بصوت خافت ومن غير أن يرفع بصره إلى أحد من جلاّسه :

– تلك هي بليّتي : إنّني أحبّ الموسيقى . وإنّني أحسّ ما لا يحسّه الناس ، وأرى ما لا يراه الناس – فلا يصدقني أحد من الناس .

عتاب

النهار أحد . وبهجة الربيع في كلّ مكان إلاّ في قلب شاعر رفعته قوافيه إلى ذروة شاهقة من المجد . لا سيّما قصيدته الأخيرة في « السّلْم » التي أجمع رأي النقاد على أنّها فريدة خالية من العيب .

نهض الشاعر من نومه باكراً وفي رأسه خطّة محكمة لنزهة شاء أن يفاجىء بها زوجه وأولاده . وقد بقي ساعات من الليل يدرس كلّ تفاصيلها إلى أن انساقت له فكانت ، في نظره ، قصيدة كاملة في ذاتها . وقال في نفسه : « الشاعر الشاعر مَن كانت كلّ أعماله شعراً . فالشعر ليس في ما ننظمه وحسب . بل في ما نعمله كذلك . فعلامَ لا تكون نزهة الشاعر وعائلته نزهة شعريّة ؟ إنّها لن تكون غير ذلك . »

ما كاد الشاعر يفضي بجانب من خطّته إلى زوجه وابنته التي توشك أن تصبح زوجاً وبنيه الثلاثة الأصغر منها سنّاً حتى أقبل الجميع عليه يقبّلونه ويدعون له بطول العمر ويرقصون من حوله كأنّهم في عرس . فكان ذلك مطلعاً بديعاً للقصيدة التي هي النزهة . وكان المطلع كما تخيّله الشاعر بالتمام . فامتلأ

قلبه غبطة ناعمة سماويّة .

ولكنها كانت غبطة عابرة . فسرعان ما نشب الخلاف بين الشاعر وزوجه حول ما يستحسن كلٌّ منهما أن يلبسه هذا أو ذلك من الأولاد . واشتدّ الخلاف واحتدم حول الابنة : أترتدي ثوبها الأحمر أم الأزرق ؟ وتجنّد الوالد للأزرق ، وتجنّدت الوالدة والابنة للأحمر . وما كان تدخّل الصبيان في الأمر إلاّ ليزيد النار استعاراً . فكلا الوالدين من العناد والتمسّك بالرأي على جانب عظيم . وانتهى الأمر ، كما تنتهي أكثر الأمور من نوعه : الأمّ في غرفتها تبكي وتتحرّق وتندب حظّها وقد أوصدت الباب من الداخل . والأب في زاوية يقضم أظافره ويعضّ شفتيه ويدخّن اللفافة بعد اللّفافة ، والأولاد يتغامزون خلسة بعيون كسيرة ، أو يتهامسون بألسنةٍ متلعثمة . وفي حلاقيمهم وقلوبهم من الغصص أهوال .

بقي الشاعر برهةً في تردّد أليم : أيخفض جناحه لامرأته فيسترضيها ولو رحمةً بأولاده ، أم يتركها وشأنها لعلّها تخفض له جناحها ؟ ولكنّ كبرياءه كانت أقسى من أن تلين . وطال تردّده فأحسّ كما لو كان بيته زاويةً من جهنّم . فوثب إلى الباب وفتحه ثمّ أغلقه بعنف وانطلق بخطوات سريعة إلى حيث كان مزمعاً أن يجعل نزهته مع عائلته .

صخرتان عظيمتان . إحداهما تنبت من كتف الوادي

وترتفع في خطٍّ عمودي مائة ذراع وأكثر . وقد اتّسعت قمّتها وانبسطت . والثانية قد أناخت على منكبيها فكانت لها بمثابة السقف .

تحت ذلك السقف تربّع الشاعر وتربّعت في قلبه غيوم كثيفة من الهواجس السود . يطردها فتعود ، ويحاول تمزيقها فتكاد تمزّقه . ومِن فوقه سماء تترقرق على أديمها فتنة زرقاء . ومن أمامه جبال تتقاعس ممعنة صعوداً في الفضاء ، وقد اعتمّتْ عمامات متوهّجة بيضاء ، وفاضت من جوانبها جداول تنهلّ هازجة إلى الوادي . ومن تحته وادٍ كسَتْ جانبيه خضرة الكروم والحقول . ومن حوله نسيمٌ مخدِّرٌ بعبير الزهر ، وأناشيد الطير ، وهدير الأمواه المتسابقة إلى البحر وكأنّه هدير أبديّات ساحقات .

إنها الجنّة التي يحلم بها الشعراء . ولكنّ شاعرنا كان منها في جحيم . وممّا زاده ألماً شعوره بقصوره عن التمتّع بجمالات جنّة هو فيها . لا لسبب إلاّ لأن زوجه أصرّت على الثوب الأحمر وأصرّ هو على الأزرق . أليس من العار عليه ، وهو الشاعر المرموق والمحسود ، أن يقف الثوب الأحمر حاجزاً ما بينه وبين الجنّة ؟ ولكن زوجه أغلظت له في الكلام وكان من واجبها أن تحترمه زوجاً إن لم تحترمه شاعراً . أليس الرجل رأس المرأة ؟ فما كان ضرّها لو أنّها عملت برأيه من غير أخذٍ

وردّ ؟ إذنْ لكان نهارهم من النهارات النادرة في الحياة ، ولفاضت قريحته بقصيدة — بل بقصائد — ما نظم شاعر مثلها بعد . لقد كان من حقّه ، ومن واجبه كزوج ، أن يؤدّبها ويكسر شوكتها ، ويذلّ عنفوانها . فيا ليته قال لها كيت وكيت . ويا ليته فعل كيت وكيت .

وراح الشاعر يصنّف في فكره حواراً لا نهاية له بينه وبين زوجه . تقول كذا وكذا فيجيبها بكيت وكيت . وما برح يصقل ذلك الحوار ويعيده المرّة بعد المرّة في قوالب جديدة محكمة حتى لم يبقَ في ذهنه أقلّ شكّ في قدرته على إفحام زوجه وكسب المعركة . وفي كلّ مرّة كان ينتهي به الحوار إلى تصوير زوجه جاثيةً أمامه على ركبتيها والدمع ينهمل من عينيها ، فيسمعها تقول بصوت مخنوق : « باسم الله والحبّ أرجوك معذرة يا روح روحي . لقد أخطأتُ فاغفر . » وعندها يلقي عليها موعظة مؤثّرة في الحبّ والواجبات الزوجيّة ويتعطّف عليها بقبلة فاترة بين عينيها . وتنتهي المعركة بعهود طويلة لسلمٍ طويل .

بقيت تلك الخيالات تساور الشاعر بين كرٍّ وفرٍّ كأنها حلم المحموم ما ينفكّ يدور في حلقةٍ مغلقةٍ ، إلى أن أنهكته فاستسلم إلى النوم . وتراءى له في نومه أن جميع حواسّه وجوارحه قامت تبكّته وتعاقبه . قالت العين :

« زهْ ، زهْ ، رسولَ الجمال . لأنتَ بئس الرسول . ها أنا منذ أن جئتَ هذه الصخرة أكشف لك صورة تلو صورة من الجمال ، وآتيك بآية بعد آية من السحر الحلال . فجبال في غلالة من نور تناجي البحر من بعيد وتبعث إليه بأشواقها ذوباً من اللؤلؤ والألماس . وأشجار تراقص النسيم فتصطفق أوراقها وتغنّي . وأعشاب وأزهار تبوح بوجدها المعطار . وأطيار تتغازل محمولة على بساط فسيح من الصبابة والسعادة . وأنت لا تبصر من كلّ ذلك غير ثوب أحمر أنا الآن براء منه . فبماذا تبصره ؟ لا شكّ أنّك تبصره بعينٍ غيري أنا . فمن أين لك تلك العين ؟ إنّها لعينٌ رمداء . أفلا جلوت عنها الرمد لعلّها تبصر ما ينفعك أن تبصره ولا تبصر ما يضرّك أن تبصره ؟ لا تلمني على ما أنت فيه ولُمْ عينك الرمداء . زه ، زه ، رسول الجمال . . . »

وقالت الأذن :

« ما بي ملل وما بي شلل . وها أنا أنقل إليك الآن بأمانة ما بعدها أمانة هذه المعزوفة الملائكيّة تتجاوب بها الأرض من حولنا والسماء من فوقنا . فما بالك ، وأنت الذي دعوت نفسك « قيثارة الملائكة » — ما بالك لا تسمع ولا تعي ؟ ما بال قيثارتك مشلولة الأوتار لا تردّد غير هذيانك وهذيان زوجك حول الثوب الأحمر ؟ وأنا الآن براء من سماع ذلك الهذيان . ألعلّك

تسمعه بأذنِ غيري أنا ؟ إنّها لأذن صمّاء . فلا تلُمْني ولُمْ أذنك الصمّاء يا قيثارة الملائكة المشلولة الخرساء . . . »

وقال الأنف :

« يكاد يُسكرني هذا الهواء العابق بالطيوب . وأنا يا شاعراً قال إن الشعر طيب الحياة أراك لا تشمّ ما أشمّ . ولو شممت لسكرت مثلي فنسيت ما قالت زوجك وما قلت . ولكنّك تشمّ رائحة كبريائك وقد تعفّنت في قلبها الأحقاد ضدّ كبرياء زوجك . وأنا لا أشمّ ذلك العفن . إذن أنت تشمّه بأنفٍ غيري أنا . إنّه لأنف مسطوم . فانتزع منه السطام إن شئت أن تشمّ طيب الحياة . . . »

وتكلّم اللسان واليد والرِّجل والكبد والرئتان وغيرها . فأنّب كلّ منها الشاعر وهزىء به على هواه . وأخيراً تكلم القلب فقال :

« أنا الحامل أوزارك ، والحافظ أسرارك ، والناظم أشعارك . أنا المشويّ بنار حبّك ونار بغضك على السواء . أنا النابض بأحلامك البيض ، وآلامك السود ، النافخ في بوق هزلك وجدّك ، القائد خطاك إلى المراعي الخضر والحمر ، الماشي في طليعة أمجادك ، الممزّق بسهام حسّادك . أنا والد آمالك ووائدها ، وحادي مطامحك ورائدها ، كيف تبخل عليّ بساعة بريئة من كلّ شيء إلاّ من غبطة الوجود وغبطة الانعتاق من الحدود ؟ بل كيف لا تخجل من أن تجعلني قارورة

لكبريائك ، وفي استطاعتك أن تجعلني قارورة للطيب تنفحك به الأرض من تحت والسماء من فوق ؟

« أما تبصر ، أما تسمع ، أما تشمّ هذا الجمال المنثور من حواليك ؟ وما أنت هيّأته وقد هُيّىء لك . أفما تملك القدرة للإقبال عليه وتملكها للإدبار عنه ؟ أم أنّ على عينك غشاوة ، وفي أذنك وقراً ، وفي أنفك سطاماً ؟ وهل تلك الغشاوة وذانك الوقر والسطام غير ثوب لو طرحتَه على هذه الصخرة لما هشّت له إن كان أزرق ، ولا عبست له إن كان أحمر ؟

« ألا بؤساً لقلب عينه رمداء ، وأذنه صمّاء ، وأنفه مسطوم ، ومقوده في يد الكبرياء ! وبؤساً لك يا شاعراً ينشد الجنّة وإذ يدخلها يضرم فيها النار . إنّه لعارٌ عليك وأيّ عار . »

وأفاق الشاعر من غفلته وإذا بكلّ ما حواليه يردّد هذه الكلمات في أذنيه : « عار عليك وأيّ عار » سواء في ذلك الوادي والجبل ، والصخر والتراب ، والزهر والأعشاب ، والطير والنسمات ، والشمس والقبّة الزرقاء ، وكأنّه كان في غربة سحيقة عن نفسه فعاد إليها . وتذكّر زوجه وأولاده . فخفق قلبه خفقة الحنوّ والندم . وانجلت الغمامة عن عينيه فما يكاد يصدّق أنّه منذ دقائق كان يصارع خصماً عنيداً ، وأنّ خصمه أثخنه جراحاً وأوقد في أحشائه ناراً ، وقلّب النهار في عينيه ليلاً ، والجمال شناعة ، والجنّة جحيماً . وأنّ ذلك

الخصم ما كان غير زوج ما شكّ يوماً في حبّها له ولا شكّت في حبّه لها . وأنّ سبب الخصام ما كان غير ثوب أحمر . . .
وثار دمه عليه فراحت كلّ قطرة منه تصرخ في أذنيه : « عار . عار . عار ! » حتّى تولاّه الشعور بأنّه قد ارتكب جريمةً لا تُغتفر ضدّ زوجه وبنيه وضدّ نفسه .

عاد الشاعر أدراجه . وكان وهو يمشي بخطوات واسعة يتلفّت إلى خلف وإلى اليمين واليسار مستغفراً الصخور والعصافير والأعشاب عن حماقته وقائلاً في قلبه : « سأستغفر زوجي وأولادي . فقد وأدت بيدي يوماً من أيّام حياتهم . وقد بدّلتهم شقاء بهناء . وكان في مستطاعي أن أتذوّق اليوم وإيّاهم حلاوة الفردوس ، فما ذقت ولا أذقتهم غير مرارة الجحيم . ولماذا ؟ لأنّ صغارتي أبت أن تُقِرّ لصغارة زوجي بالغلبة . . . عفواً ثمّ عفواً يا أزرق ويا أحمر ، ويا أبيض ويا أسود ، ويا جميع ألوان السماء والأرض . أنتِ للحكيم حكمة وجمال . وللأحمق حماقة وبشاعة . وقد كنت اليوم أحمق وأيّ أحمق . ولكنني لن أكونه فيما بعد . »

وأخيراً بلغ الشاعر بيته ففتحت له ابنته الباب وكانت في ثوبها الأحمر . وما إن وقع بصره عليها حتّى اكفهرّ وجهه ، ورجفت أعصابه ، والتمع الغضب في عينيه . فصاح بأعلى صوته :

« نكاية . نكاية بأبيك يا قليلة الحياء ؟ سأعلّمك وأعلّم التي علّمتك النكاية بأبيك كيف تكون عاقبة النكايات . . . » ولطمها لطمتين مادت لشدّتهما ، ثمّ انطلق بسرعة السهم إلى غرفته وأوصد خلفه الباب وهو يهدر : « نكاية . نكاية . يا لكيد النساء ! »

التوبة

– قل : « تباركت الحياة ! »

قلت : « تباركت الحياة ! وماذا بعد هذا التبريك ؟ »

قال : « أتذكر كم نهيتني عن الصيد فما انتهيت ؟ »

قلت : « أذكر . . . ألعلّك انتهيت اليوم ؟ »

كان محدّثي رجلاً تخطّى الأربعين ، صبيح الوجه ، ناعس الجفن ، لطيف المبسم ، خفيف الظلّ والحركة . وقد اشتهر إلى رشاقته في الصيد ، بصفاء سريرته ، وسخاء كفّه ، وعفة لسانه ، ورقّة قلبه . والحكايات التي يرويها الناس عن عطفه الجميل على الحيوان كثيرة وطريفة . منها أنّ هرّة في بيته انكسرت رجلها ، فكاد يعادي كلّ مَن في البيت عندما قرّ رأيهم على التخلّص من الهرة بإغراقها في النهر . وعكف عليها يداويها ويتداركها بالأكل والشرب حتى انجبر كسرها .

ومنها أن دجاجة من دجاجاته أصيبت بالعمى . فما كان منه إلاّ أن بنى لها قنّاً خاصّاً بها وراح يخدمها بنفسه فيطعمها ويسقيها من يده ، ويأتيها بالأعشاب النديّة التي تحبّها ، وينظّف لها مرقدها ، وقد حرّم لحمها على نفسه وعلى زوجه وأولاده .

وما انفكّ يعولها حتى انتقلت إلى جوار أسلافها ، فدفنها باحترام وخشوع . ويقال إنّه بكى فوق مدفنها .

وممّا اشتهر عنه كذلك أنّه ، على وفرة صيده ، ما كان يذوق شيئاً ممّا يصطاده . وإذا سئل في ذلك كان يجيب : « سبحان الله . إن يدي تطاوعني على القتل ، أمّا فمي فلا يطاوعني على أكل ما أقتل . حسبي أن أقتل . وحسب غيري أن يأكل . »

ولأنّني عرفت الرجل عن كثب وخبرت ما فيه من فطرة طيبة ، كنت كلّما اجتمعت به وأصغيت إلى أحاديثه الأخّاذة عن مغامراته في الصيد أبدي له دهشتي للتناقض الغريب في طبيعته . فبينا هو ينفطر قلبه لدجاجة عمياء أو قطّة عرجاء ، إذا به لا يعرف لذّة تفوق لذّة البطش بحجل أو بأرنب أو بغزال .

لقد حاولت جهدي أن أصرفه عن الصيد فما أفلحت. وأذكر أنّني قلت له مرّة على سبيل التهويل إن الحياة من شأنها أن تتقاضانا وجعاً بوجع ولذّة بلذّة . فنحن نتوجّع ونتلذّذ على قدر ما نسبّب لمخلوقات الله وجعاً أو لذّة . ولذلك قيل من قديم الزمان : « عين بعين وسنّ بسنّ . » إلاّ أنّه ما أبه لقولي بل راح يحكّ في رأسه على مهل ثمّ قال ببرودة متناهية : « الصيد حلال . . . وما من لذّة عندي تفوق لذّة الصيد . »

وقد سألته غير مرّة أن يحلّل لي تلك اللذّة من أين مصدرها : أهو في التفتيش عن المجهول ، أم في الحيلة البارعة يحتال بها الصياد على العَصيّ فيذلّله ، وعلى القصيّ فيدنيه ؟ أم أنّه في الرياضة البدنيّة التي يفرضها الصيد على الصياد ؟ فكان جوابه في كلّ مرّة أن لذّة الصيد عنده هي في كلّ ذلك وفي مشاعر أخرى تستعصي على التحليل . ومنها لذّة الانفلات من هموم المعيشة ، ولذّة الانطلاق مع الطبيعة حيث يتاح له أن يتنشّق عبير الصخر والتراب ، والريح والسحاب ، وأن يسكر بأهازيج الأسحار والأغساق ، وأن يغتسل بعرقه ، وأن يسمع دقات قلبه ، وهو يعدو خلف طريدته . ثمّ يُنهي حديثه بهزّة من كتفيه ويتمتم :

— م — م — م ! الصيد متعة نادرة لا يعرفها إلاّ الصياد . هو عيد أيّ عيد للروح والبدن معاً . ويا ويلي يوم يمسي هذا البدن رهين جدران أربعة .

*

مرّ كلّ ذلك في خاطري بسرعة البرق ساعة جاءني أبو مروان يطلب إليّ أن أبارك معه الحياة ويذكرني بما كان بيني وبينه بشأن الصيد . وقد اشتممت في لهجته أن تغييراً قد طرأ على تفكيره . فقلت :

— إن في عينيك لخبراً يا أبا مروان . هات ما عندك .

فأمسك بذقنه وأطرق هنيهة ، ثمّ أخذني من يدي ، وأجلسني على حجر بجانبه ، وتنحنح وقال :

— اسمع . . . أفقت صباح أمس مذعوراً من حلم رأيته في المنام ، فقد حلمت أنّني أرديت حجلاً . وعندما لمته عن الأرض وجدت أن رمقاً ما يزال به ، فاستللت سكيني وذبحته . وإذا به يتحوّل بغتة في يدي طفلاً آدميّاً ذبيحاً ، وإذا بذلك الطفل ولدي الأصغر فؤاد وله من العمر أربع سنوات . وأنت تعرفه وتحبّه . ولعلّك لا تعرف أنّه يكاد يكون معبودي من بعد ربّي . وكنت عازماً على الذهاب إلى الصيد في ذلك الصباح، فكاد الحلم يثنيني عن عزمي . ولكنني عدت فانتهرت نفسي لما أبدته من ضعف إذا هو لاق بامرأتي فإنّه ما كان يليق بي . وأخذت زادي وعدّتي وانطلقت . وقبل أن أجتاز العتبة لحق بي فؤاد وهو يصيح : « بابا . بابا ! » فرفعته إليّ وقبّلت عينيه وجبهته ووجنتيه وسألته ماذا يريدني أن أجلب له معي . فكان جوابه : « حجل تبيل — أي كبير — تبيل — تبيل ! » وأشار بيديه الاثنتين إلى حجم الحجل الذي كان يريدني أن آتيه به .

« أتصدق يا صاحبي أنّني صرفت النهار بطوله أهبط وادياً وأتسلّق جبلاً ، فما توفّقت حتى إلى ريشة من حجل ؟ لا . لم يكن السبب قلّة الحجال ، فقد عثرت على الكثير منها . وقد

أطلقت لا أقلّ من عشرة عيارات على عشرة حجال فما أصبت واحداً منها . لو أن غيري أخبرك ذلك عني لسفّهته من غير شكّ . فأنت تعرف أنّ أبا مروان لم يتقن شيئاً في حياته إتقانه الرماية . ولكن يدي وعيني كانتا في نفار ، وما كنت أدري السبب . حتى بتّ أعتقد أن ذلك الحلم المزعج قد فعل فعله بأعصابي وأفكاري عن غير علم منّي . فما زادني ذلك الاعتقاد إلاّ حنقاً على نفسي . لقد كنت أرفض أن أسلّم بقولك إن للحياة موازين غير موازيننا ، وإن فينا قوى باطنيّة تدفعنا على أعمال وتردعنا عن أعمال من غير أن نعرف لماذا تدفعنا ولماذا تردعنا . وإنّه من الخير لنا أن نتفهّم تلك الموازين فنتبنّاها ، وتلك القوى فنطاوعها .

« مالت الشمس إلى المغيب وليس في جعبتي حتى ولا عصفور . فحزّ في نفسي أن أعود إلى البيت وأن يلاقيني فؤاد وليس في يدي حجل « تبيل » . لقد كنت أؤثر أن تُحذف سنة من عمري – بل عشر سنوات – على أن أقابل ولدي الصغير تلك الليلة بيدين فارغتين . وكم تمنيت لو كانت لي قدرة يشوع بن نون – الذي ورد ذكره في التوراة – لأوقف الشمس وأمدّ في عمر النهار ساعة أو ساعتين لعلّني أوفّق إلى اصطياد حجل أو طائر آخر يستعيض به ولدي عن الحجل .

« أخيراً غُلبت على أمري . وعدت أدراجي والخيبة تنهش

قلبي نهشاً ، والحلم اللعين يقفز في رأسي وأمام عيني . وقد أيقنت أنّه كان السبب الوحيد في فشلي الذريع . أما كيف كان ذلك ولماذا ، فما كنت أدري ولا كنت أحاول أن أدري .

« وأنا كذلك ، وقد هممت أن أُفرغ بندقيّتي وأعلقها في كتفي ، وأن أجدّ في السير مخافة أن يدركني الظلام في الجبال ، إذا بثعلب يطفر من بين الأشواك عند عطفة في الطريق . . . فأرديته في الحال لا طمعاً بجلده ، فجلود الثعالب ، كما تعلم ، لا تنفع لشيء في هذا الفصل من السنة . ولكنني أرديته تشفياً من الطبيعة التي عاندتني كلّ ذلك النهار وتشفّياً من نفسي ؛ ومن ثمّ فقد كنت أريد أن أستعيد ثقتي بعيني وبيدي وأن أزحزح عن فكري كابوس ذلك الحلم المزعج .

« عدت إلى حيث وقع الثعلب وإذا بثلاثة جراء صغار تطفر من بين الأشواك وتتغلغل ما بين الصخور القريبة . فأدركت للحال أنّني قتلت أمّاً لثلاثة بنين ، بل قتلت أمّاً وبنيها الثلاثة ، فقد كانوا قاصرين عن تحصيل رزقهم بدونها . وأحسست كأن حِراباً تطعنني في قلبي وعصيّاً تنهال بالضرب على رأسي . ولكن أوجاعي ما لبثت أن انقلبت دهشة ، ثمّ قشعريرة ، ثم غبطة عندما أدركت الثعلبة القتيلة فوجدت في فمها حجلاً كبيراً ، ووجدت أن الحجل ما يزال على رمق من الحياة .

« لا تسل عن الأفكار والأحاسيس التي تجاذبتني في تلك

اللحظة . لقد ارتكبت جريمة فظيعة ، ما في ذلك شكّ ، فهذه ثعلبة تُرضع ثلاثة جراء ، وجراؤها عزيزة على قلبها مثلما أولادي أعزاء على قلبي سواء بسواء . ولعلّها إذ خرجت في ذلك الصباح من وجارها طلب إليها أصغر جرائها ما طلبه إليّ أصغر أولادي : «حجل تبيل ! »

« ولعلّها جالت النهار كلّه ، مثلما جلته ، فما توفّقت إلى صيد إلاّ في ذلك المكان وفي تلك الدقيقة . فمن قادني إلى ذلك المكان بعينه في تلك الدقيقة بعينها لأسلب الثعلبة المسكينة حياتها ، ثمّ لأسلبها وأسلب صغارها عشاء ليلتهم لأجعله عشاء لصغاري ؟ وهل كانت تدري تلك الثعلبة أنّها عندما اصطادت الحجل ما اصطادته لنفسها ولصغارها بل لي ولابني فؤاد وإخوته ؟ أجبني . أجبني إذا كان لديك من جواب . »

ولكنني ما أجبت جليسي بشيء . فتلمّظ كمن يأكل شيئاً شهيّاً ، وعاد إلى حديثه فقال :

« ذلك فوق إدراكي . أما العبرة فليست في ما ذكرت بل في أنّني عندما أخذت الحجل في يدي ووضعت السكين على عنقه ثمّ ذبحته عاودني الحلم . وفي لحظة خلتها دهراً تراءى لي الحجل الذبيح في يدي كما لو كان ابني الأصغر . فكدت أفقد رشدي ، وكادت روحي تفلت من بين أضلاعي . لا تؤاخذني فالقشعريرة تمشي في بدني الآن .

« ولكنها كانت لحظة لا أكثر عاد من بعدها رشدي إليّ وعادت روحي فلبستني . وأيقنت أن نيّة ولدي الطاهرة هي التي دبّرت كلّ ذلك كيلا أعود إليه صفر اليدين . فلا جريمة في الأمر ، ولا مبرّر لتقريع الضمير . أمّا الحلم فما كان غير ضغث من الأضغاث .

« عدت إلى البيت شاكراً ربّي على الخاتمة الموفّقة التي اختتمت بها نهاري . وقد نسيت — أو تناسيت — أن الحجل الذي كنت أحمله في جعبتي ما كان من صيدي بل من صيد ثعلبة منكودة الحظّ ، وأن تلك الثعلبة كانت في الواقع صاحبة الفضل في الفرح العظيم الذي كان من نصيبي ونصيب ولدي عندما ناولته الحجل .

« وشوت زوجتي الحجل . وأعطت الصغير فخذاً وبعضاً من لحم الصدر ، والجوّ حول المائدة جو مشبع بالهرج والمرج . وبغتة صرخ الصغير صرخة المذعور ، وركبه السعال ، وأخذ يشهق ويصيح ، ويتخبّط بيديه ورجليه ، فأدركنا أن حسكة نشبت في حلقومه ، وأنّنا خاسروه لا محالة إذا لم نتداركه في الحال . ومن حسن حظّنا أن جارنا طبيب ، وأنّه كان في البيت .

« الخلاصة يا صاحبي أن الولد نجا من الموت بأعجوبة . وها أنا يرتجف قلبي وتصطكّ أمعائي في داخلي كلّما عاودتني

صورته وهو يشهق ويتمرّغ على الأرض ويطلب المدد . »

وسكت محدّثي طويلاً . ثمّ نهض بتثاقل وقال وهو يضع يده في يدي مودّعاً :

« قل معي تباركت الحياة ، فهي تعلّمنا من حيث ندري ولا ندري . »

قلت : « تباركت الحياة . وهل يعني ذلك أنّك طلّقت الصيد ؟ »

فأجاب بحدّة : « أوَتشكّ في ذلك من بعد أن سمعت ما سمعت ؟ »

دجاجة أم يعقوب

أمّ يعقوب عجوز أوفت على التسعين . وهي في عُرف أبناء قريتها أرملة . أما في عرف نفسها فامرأة ذات بعل . والسرّ في ذلك أن زوجها — وكان تاجر أغنام — سافر منذ سبعين سنة إلى الموصل ولم يرجع ، ولا قام في كلّ تلك المدّة الطويلة أي دليل على بقائه في الحياة . فأجمع رأي الناس على أنّه ذهب إلى ملاقاة ربّه إمّا قضاء وقدراً أو مجندلاً بمدية لصّ طمعاً بما كان يحمله من مال . ولكن أم يعقوب ما كانت تعبأ بآراء الناس من هذا القبيل وكانت تدعوها « تخرّصات يمليها الحسد » وتقول إن في قلبها « هاتفاً » ما انفكّ يؤكّد لها أن زوجها حيّ يُرزق . « والإنسان قلبه دليله » .

هنالك بعض الخبثاء من جيران أم يعقوب الذين يذهبون إلى الاعتقاد أن الرجل ما سافر إلى الموصل في طلب الأغنام . بل أوهم زوجه أنّه فاعل ذلك . أمّا في الواقع فقد هجر بيته وأهله وملكه إلى بلاد قصيّة هرباً من لسان زوجه المرّ ومن بخلها الفائق الحدّ . فقد كان ذا مزاج مرح وطبيعة وادعة مسالمة ، وكان مضيافاً سخيّاً . في حين أن أم يعقوب ما عرف

وجهها الابتسام ، ولا لسانها اللطف ، ولا كفّها العطاء ، وهي ، إلى ذلك ، عاقر . أمّا أنهم أطلقوا عليها كنية « أم يعقوب » فمن باب المجاملة وحُسن الجوار وعلى سبيل التفاؤل لا أكثر . وإنّه لمن الإنصاف أن نُقرّ لها ولو بفضيلة الصراحة . فهي ما سترت يوماً من الأيّام مرارة لسانها وعبوسة وجهها وشحّ كفّها عن أحد . بل إنها تباهي بها ، ولها في ذلك فلسفة خاصّة تتلخّص على وجه التقريب كما يلي :

« العيش كفاح . وكلّ إنسان خصم لكلّ إنسان . وخصمك إن تبسّمت له أو ضحكت استضعفك ونكّل بك . فلا يبسم لخصمه إلاّ الأبله . والعيش صياح . فمن لان للناس بلسانه قسوا عليه بقلوبهم . ومَن خَفَتَ صوته خفّ وزنه فاستخفّ به النّاس واستعصت عليه حاجته . والعيش توفير لا تبذير . فمن شبع جيبه ما جاع بطنه . والتبذير هو أن يأكل الإنسان فوق ما يحتاج إليه لحفظ الرمق وأن يلبس أكثر ممّا يستر عريه . والتوفير هو جمع ما فاض عن ذلك مهما تكن قيمته . والمثل السائر يقول : « الحلاقة بالفاس . ولا الحاجة إلى الناس » .

« أمّا الإحسان من أي نوع كان فجريمة . فربّك لو شاء لجعل قسمة الناس واحدة . ولكنه ، لحكمةٍ ، يُغدق رزقه على البعض ويمسكه عن البعض . فأنت إذ تشفق على الفقير وتعطيه من تعبك ومالك إنّما تعاند قدرة الله وتعارضه في حكمه

وحكمته . وأما الضيافة فسخافة . ليأكل الناس ويشربوا كلٌّ ممّا جنت يداه . ومن ثمّ فكم ضيف يأكل زادك ثمّ يسخر منك ؟ »

تلك هي خلاصة فلسفة أمّ يعقوب . ومن الإنصاف كذلك القول إنّها — وأعني أم يعقوب — تطبّق فلسفتها بحذافيرها على حياتها من يوم إلى يوم . وهي فضيلة جد نادرة بين الفلاسفة . فطعام أمّ يعقوب لا يزيد على وجبة واحدة في النهار قوامها الخبز . وأما ما ظهر للعين من ثيابها فيستعصي على أمهر خياط تحديد أصله أو أساسه . ذلك لكثرة ما تداولته الإبرة بالرتق والتّرقيع .

إذا نظرت إلى أمّ يعقوب تتوكّأ على عصاها المعقوفة الرأس وقد تقوس ظهرها حتى ليكاد جبينها يلامس الأرض ، حسبتك ، من غير شك ، تبصر عجوزاً تمشي إلى قبرها وليس بينها وبينه غير بضع خطوات ، ثم حسبتك لو نفخت عليها لهوت إلى الحضيض . ولكنك متى عرفت أنّها ما فقدت بعد سنّاً من أسنانها ولا ضرساً من أضراسها ، وأنها ما تزال تُدخل الخيط في ثقب الإبرة وترفأ ثيابها وتغسلها بيدها ، وأن لها ذاكرة ما محت الأيّام شيئاً من مخزوناتها ، ولساناً ما حدّث الأحداث من حدّثه — أقول لعلّك لو عرفت كل ذلك لما تسرعت في حكمك على أم يعقوب ولصدّقت قولها إنها

« لن تُدفن قبل أن تَدفن المائة الأولى وبعضاً من الثانية . » فهي تكره الموت أشد الكراهية ولا تنفك تردّد : « الموت ؟ لا كان الموت . أنا أريد أن أعيش » .

ولماذا تتمسّك أم يعقوب ذاك التمسّك الشديد بالعيش وهي لشحّها وضيق مواردها ، لا تكاد تنام إلا على الطوى ، ثم لا تكاد تعرف قلباً واحداً في القرية ينفتح لها ويأنس بوجودها ؟

إليك الجواب : أولاً : لأن أم يعقوب تؤثر أن تتنفّس على أن تكون عديمة النفس . وهي تعدُّ طول العمر منحةً ربّانيّة لا ينالها إلاّ الذين رضي الله عنهم . ثانياً : لأمّ يعقوب دجاجة ولا كالدجاج . وبينها وبين دجاجتها وشائج قلبيّة ونفسيّة لا مثيل لها بين حيّ وحيّ . وموتها يؤدّي حتماً إلى موت دجاجتها حزناً عليها . ما في ذلك شكّ . فحبّها للحياة هو بعض من حبّها لدجاجتها . ثالثاً وأخيراً : إنّ أمّ يعقوب تريد أن تعيش نكاية في جارتها . فجارتها تتمنّى لها الموت من زمان وتتوقّعه لها من يوم إلى يوم . وأمّ يعقوب تكره جارتها أشدّ من كرهها للموت .

أمّا جارة أمّ يعقوب فأرملة لا تقلّ بخلاً عن أمّ يعقوب . ولكن في نفسها دناءة ليست في نفس أمّ يعقوب . فهي لا تأنف من أن تقوم بأخسّ الأعمال لقاء رغيف أو رغيفين

من الخبز أو لقاء دريهمات قليلات ، مثلما لا تأنف أن تمدّ يدها إلى رزق غيرها إذا كانت عيون الغير في غفلة عنها . وأمّ يعقوب اتّهمتها غير مرّة بسرقة أشياء من بيتها . وهي التي أكنتها « أمّ الثآليل » لكثرة الثآليل على أنفها وذقنها . فغلبت تلك الكنية على كنيتها الأصليّة « أمّ زيدان » . وزيدان كان بكرها الذي ارتحل عن هذه الفانية بعد أن أقام فيها سنتين لا غير . وهي تحضن من بعده ثلاث بنات بين العاشرة والخامسة عشرة . فتشبعهنّ لكماً وشتماً قبل أن تشبعهنّ خبزاً . ذاك لأنّها لا تطيق أن ترى في بيتها فماً يأكل إلاّ إذا كان من خلفه يدان تنتجان فوق ما يأكل . وغنيّ عن البيان أن بينها وبين جارتها قطيعة مزمنة لا وصل بعدها . فلا « صباح الخير » ولا « مساء الخير » بل نظرات مسمومة ، وتمتمات محمومة ، وابتهالات دائمة من الجانبين لعلّ السماء تمطر الجانب الثاني ناراً وكبريتاً .

إلاّ أن ربّك أرحم من أن يضرب بكلّ عصاه . فهو لا يصفع بيد إلاّ ليتلقّى المصفوع بالأخرى . وهو ما نكّد قلب أمّ يعقوب بعداوة أمّ الثآليل حتّى عاد فأثلجه بصداقة « السنيورة » . والسنيورة هي دجاجتها وأحبّ المخلوقات قاطبة إلى قلبها . وقد كانت موفّقة إلى أقصى حدّ في اختيار ذلك الاسم لها . وهي تلفظ « السين » منه « صاداً » وتلفظها

مفخّمة ، وبالفتح لا بالكسر هكذا « صَنْيُورا » .

والحقّ أن الصّنيورا سيّدة — وسيّدة نبيلة — بين بنات جنسها . سوادها سواد الغراب ، ولمعان ريشها لمعان ريشه . أمّا مشيتها فمشية الحجل أو مشية الدرّاج . ولها عُرْفٌ تورّد والتوى إلى اليسار حتّى ليكاد يغطي عينها . وساقان نحيفتان زرقاوان تنتهيان بأصابع ممشوقة ومسلحة بمخالب ليس أشدّ منها في حفر التّراب ونكش المزابل . وإنها المتعة المثلى لقلب أمّ يعقوب أن تجلس على عتبة بيتها عند اشتداد الحرّ في الصيف وترقب دجاجتها تحفر حفرةً في التّراب الناعم فتضطجع فيها على جنبها ثمّ تروح تذرو التراب من خلال ريشها الكرّة بعد الكرّة إلى أن يغلبها الشعور بالنظافة والسعادة فتستسلم إلى غبطتها الدجاجيّة وتنام نوم الأبرار .

لم تبخل الطبيعة على الصنيورا بشيء من كمالات الدجاج إلاّ بالذنب . وقد عوضتها عنه ريشةً واحدة معقوفة إلى فوق تبدو كأنّها شارة من شارات الشرف . وعوّضتها فوق ذلك عقلاً قلّما تحلّت دجاجة بمثله . فبينها وبين أمّ يعقوب تفاهم تامّ . إذا قالت لها « تَعِيْ » أي تعالي أقبلت ، وإن قالت لها « روحي » أدبرت . وهي تميز ما بين حركات الزجر وحركات الاستحسان من حركات صاحبتها وتعرف متى يجوز لها أن تسرح وتمرح في البيت على هواها ومتى لا يجوز . وتعرف

أنّ صاحبتها لا تأنف من تنظيف أقذارها بُعيد كلّ دورة تفتيشيّة يخطر لها – أي للصنيورا – أن تقوم بها في زوايا البيت . وكثيراً ما يبلغ بها الغنج أن تقفز إلى حضن صاحبتها لتغفو فيه أطيب غفواتها ، ويد أمّ يعقوب تمسّد الريش على رأسها برفق ، وبين الفينة والفينة ترفعه إلى شفتيها لتطبع على العرف الأحمر قبلة كلّها إعجاب ومحبّة بغير حدّ .

أمّا الأغرب من ذلك كلّه فهو أنّ الصنيورا لا يفوتها في أيّ يوم من أيّام السنة الوقتُ الذي فيه تتناول أم يعقوب رغيفها المقسوم لها في ذلك اليوم . فتنبري تدور من حولها مردّدة بلغتها الخاصة ما معناه : «خبزك طيّب يا أمّ يعقوب . أطعميني يطعمك الله » وإذا بأمّ يعقوب تصبح وكأنّها الكرَم المجسّد . فلا تأكل كسرة حتى تناول الصنيورا كسرة . والصنيورا تأكل وتشكر وتدعو بطول العمر لأم يعقوب وتبيض لها خمس بيضات في الأسبوع . إلاّ في الشتاء حيث تستريح . وأمّ يعقوب تأخذ البيض كلّ نهار سبت وتبيعه من سيّدة غنيّة في القرية بأسعار تزيد عن أسعار الغير ، لأنّه « طازج » ولأنّه «أكبر حجماً من البيض العادي » .

لقد بلغ هيام أم يعقوب بدجاجتها حدّاً ما كانت تستطيع معه مفارقة البيت لزيارة الجيران . فإذا عاتبتها جارة في ذلك أجابتها : « يا عيني أنت ، ويا روحي . من أين لي الوقت ؟

أنا امرأة في رقبتي مسؤوليّة . فمن يطعم دجاجتي إن لم أطعمها ، ومن يسقيها إن لم أسقها ، ومن يحرسها إن لم أحرسها ؟ وأولاد الحرام في هذه الأيّام أكثر من الثعالب وبنات آوى » .

وكان يوم تفقّدت فيه أمّ يعقوب القنّ على عادتها . وإذ لم تجد فيه البيضة المنتظرة هلع قلبها فضربت كفّاً بكفّ ثمّ راحت تؤنّب نفسها بصوت عال : « قبّحك الله أمّ يعقوب ما أغباك . لقد وقعتِ في المكروه الذي كنت تحذرين . فتنكّرتْ دجاجتك لقنّها وباضت في قنّ أمّ الثآليل » . والواقع أنّ أمّ يعقوب كان يساورها أشدّ القلق كلّما رأت الصنيورا تخالط دجاجات جارتها . أمّا صداقة الصنيورا مع ديك جارتها فكانت تضرب عنها كشحاً ، بل كانت تنظر إليها بشيء من العطف والرضا .

وكان يوم آخر وآخر وآخر ولا أثر لبيض جديد في القنّ حتى كادت أمّ يعقوب تفقد رشدها . فأخذت الصنيورا بين يديها وهزّت إصبعها في وجهها سائلة : « أين بضتِ البارحة يا ناكرة الجميل؟ وقبل البارحة وقبل قبل البارحة؟ » ولكن الصنيورا ما أجابت بأكثر من قرقرة مبهمة . وظلّ سرّها مكتوماً . ولكي تنفي كلّ أثر للظنّ من رأسها وقلبها — وبعض الظنّ إثم — راحت أمّ يعقوب تجسّ مؤخّر الصنيورا في كلّ صباح . وهكذا تأكّد لها أن ظنّها كان في موقعه . فالصنيورا

ما انقطعت عن البيض ، وما كانت تبيض في قنّها . إذن كانت تبيض في قنّ أمّ الثآليل . ما في ذلك شكّ .

انقضى أسبوعان على تلك الحال . فطفح الكيل وانبرت أمّ يعقوب لأمّ الثآليل تطالبها بعشر بيضات وتنعتها بأبشع النعوت . وكان شجار عنيف بين الجارتين . وكانت شتائم ضجّ بها الهواء واقشعرّ لها الجيران . ولكنها ما أسفرت عن نتيجة حاسمة . فلا أمّ الثآليل أقرّت لأمّ يعقوب ببيضة واحدة ، ولا أمّ يعقوب تخلّت عن تُهمة من تُهَماتها العديدة ضدّ أمّ الثآليل .

ثمّ كان ما هو أفظع من ذلك بكثير . فقد اختفت الصنيورا واختفت آثارها بعد مشاجرة الجارتين بيوم واحد . فأيقنت أمّ يعقوب أنّ أمّ الثآليل – أو إحدى بناتها – كانت الجانية على دجاجتها وعليها . وعبثاً راحت تستنجد الجيران . فما كان من ينجدها ولا بيّنة لديها ضد جارتها . وحاول البعض تعزيتها بقولهم إن الجاني هو في الغالب ثعلب . ولكن عقل أمّ يعقوب ما كان ليقتنع وقلبها ما كان ليتعزّى . فما عتّم حَيْلها أن انهدّ ، وبصرها أن أظلم ، ونَفَسها أن ضاق به صدرها . فدفنت نفسها في فراشها واستسلمت للسويداء واليأس والنحيب والصوم وبعد ثلاثة أسابيع – للموت .

وفيما الحفل الصغير خارج بالجنازة من البيت إذا بابنة

أمّ الثآليل التي لها من العمر عشر سنوات تصيح بأعلى صوتها : « الصنيورا ! الصنيورا ! هاكم الصنيورا » . وإذا بدجاجة في مؤخّرها ريشة معقوفة إلى فوق تتقدّم من البيت بخطوات وئيدة غير آبهة للجمهور وفي مشيتها الكثير من الاعتزاز بالنفس ، ومن خلفها تسعة فراخ تحاول اللحاق بها وهي تتلفّت إليها وتشجعها « بتكتكة » لا تعرف الوجل . وإذا بالدجاجة وفراخها تدخل البيت فتتفقّده زاوية زاوية . وتنتهي إلى فراش أمّ يعقوب فتقف هناك مذهولة وكأنّها تقول : « ها أنا والأولاد الذين أعطانيهم الربّ . فأينَ أنتِ ، أين أنتِ يا أمّ يعقوب ؟ »

اليوبيل الألماسي

رفع رئيس التحرير سماعة التلفون بيد مكهربة بالغضب . فقد كان منذ ساعتين يحاول كتابة مقال يدعم فيه مرشح حزبه في الانتخابات الجارية فما ينقاد له القلم . وكان قد مزّق الورقة العاشرة عندما رنّ جرس التلفون للمرّة العشرين . فتمنّى لو كانت السمّاعة في يده حجراً يهوي به على رأس الذي جاء يزعجه ويشوّش عليه أفكاره . ولكنه عاد فتملّك أعصابه عندما عرف أن الذي يكالمه ما كان غير مدير المطبعة .

ــ نعم . نعم . عرفتك . تكلّم . أمن عطل جديد في المطبعة ؟

ــ كلاّ . ولكن عندنا ما هو أسوأ من ذلك .

ــ أحركة بين العمال ؟

ــ لا شيء من ذلك . ولكن . . .

ــ ولكن ماذا ؟ شغلي إلى ما فوق أذني . ولا وقت عندي لقتل الوقت .

ــ عندنا عجوز تصرّ على مقابلتك .

ــ ومن هي ؟ وماذا تريد مني ؟

– اسمها « فتنة » . وتقول إن لديها أموراً شخصيّة تفضي بها إليك .

– فتنة ؟ أما كفانا ما عندنا من فتن ؟ أما استطعت أن تصرفها باللطف . . . بالعنف ، إلى الشيطان ، إلى جهنم ؟

– حاولت ولكن بغير جدوى . إنها طاعنة في السنّ ومجرّد وجودها هنا يلهي العمال عن العمل .

– اطرحوها خارجاً فلا وقت عندي لاستقبال العجائز وإن كنّ فاتنات .

– ولكن العنف قد يودي بحياتها . فهي تكاد تكون خيالاً بشريّاً .

– قل لها أن تأتيني في غير هذا اليوم .

– ولكنها تلحّ على مقابلتك اليوم والآن .

– لا حول ولا . . . جئني بها ، ولكن من بعد أن تُفهمها أن وقتي لا يتّسع لأكثر من خمس دقائق .

دخلت العجوز على رئيس التحرير وهي تتوكّأ على عصا محدودبة كظهرها ، وفي ثياب إن نمّت عن شيء فعن الفقر والسذاجة دون المذلّة والقذارة . ومن بعد أن جلست وشدّت منديلها الأسود على شعرها الأشيب حيّت الرجل باحتشام وقالت بلسان يتلعثم في فم لا أثر فيه للأسنان والأضراس :

– أنا فتنة . . .

ـ تشرّفنا . وبماذا جاءت فتنة تفتننا ؟

ـ لا تؤاخذني . سمعي ثقيل . ارفع صوتك قليلاً .

ـ تشرّفنا . . . ماذا تريدين مني ؟

ـ أنا فتنة . زوجة يعقوب .

ـ عليه السلام . ماذا تريد فتنة زوجة يعقوب من رئيس تحرير جريدة « النور » ؟

ـ يعقوب . يعقوب . . . أما تعرفه ؟

ـ لم يحصل لي الشرف حتى الآن .

ـ أما المرحوم والدك فكان يحبّه كثيراً .

ـ رحم الله الاثنين . وبعد ؟

ـ لا . الرحمة لوالدك . أما زوجي فحي من كرم الباري .

ـ إذن لا رحمه الله . وبعد ؟

ـ يعقوب في الخامسة بعد المائة . وأنا في الخامسة بعد التسعين . واليوم هو يوم يوبيلنا الألماسي .

ـ وقد جئت حضرتك تدعينني إلى حفلة اليوبيل ؟

ـ اليوم تمّت الخمسة والسبعون عاماً لزواجنا . وهذا أمر لا يعرفه إلاّ ثلاثة : أنا ويعقوب والله . ومنذ الآن تصبح أنت رابعنا .

ـ هو شرف عظيم لي يا سيدتي أن أكون رابع جماعة ثالثهم الله عزّ وجلّ . وبعد فما شأني بيوبيل فتنة ويعقوب ؟

ـ لم أسمع . لا تؤاخذني . قاتل الله الشيخوخة .

ـ بل أنت تسمعين ما تريدين ، ولا تسمعين ما لا تريدين .

ـ لا تهزأ بي يا سيّدي . فالهزء في الخمسة والتسعين عاماً خفة واستهتار وعار .

ـ قلت ما شأني بيوبيلكما الألماسي ؟

ـ أنت الكلّ في الكلّ .

ـ أنا ؟ !

ـ نعم . أنت . فلولا يعقوب لما كنت اليوم حيث أنت .

ـ تعنين أني مدين لزوجك بمركزي ؟

ـ نعم . فيعقوب كان ذراع والدك اليمنى يوم أسّس الجريدة . إذ لم يكن فيها غيرهما . يعقوب لصفّ الأحرف والطباعة والتوزيع وغيرها من الأعمال الثقيلة . ووالدك للإدارة والتحرير .

ـ وكم بقي يعقوب في خدمة الجريدة ؟

ـ خمسين عاماً . وكنت أظنّك تعرف ذلك . أما أخبرك المرحوم والدك عن يعقوب ؟

ـ لست بصاحب الجريدة يا خالتي . ولا أنا ابن مؤسّسها . أنا رئيس التحرير لا أكثر . أتفهمين ؟ أنا رجل مأجور كما كان يعقوب . لقد انتقلت هذه الجريدة من بعد وفاة صاحبها

إلى أيد كثيرة . وصاحبها الحالي لا يعرف يعقوب . وليس في الإدارة كلّها من يعرف يعقوب . أفهمت ؟

ـ لا يعرفونه ؟! لا يعرفون يعقوب ؟! لا يذكرون الخمسين عاماً التي أمضاها في خدمة هذه الجريدة يطعمها من لحمه ودمه ؟! حقّاً لقد تبدّلت الأزمنة وتبدّل الناس . . .

وأخرجت العجوز من تحت إبطها الأيسر خرقة ممزّقة ، ولكنها نظيفة ، ومسحت بها دموعها . وسكتت . وعندها تغيّرت ملامح رئيس التحرير فانبسطت أساريره وكانت متقطبة . وابتسمت عيناه وكانتا في عبوس . فانحنى نحو العجوز وقال في كثير من الرفق والعطف :

ـ الآن ، وقد أفهمتك يا خالتي أنّني لست وريث مؤسّس الجريدة ، وأنّني رئيس تحريرها لا أكثر ، فماذا ترغبين إليّ فعله في سبيلك وسبيل يعقوب ؟

ـ اليوبيل يا سيدي . اليوبيل . ولا شيء أكثر من ذلك .

ـ أتريدين معونة مالية تمكّنك ويعقوب من الاحتفال بيوبيلكما الألماسي ؟

ـ لا . لا . شكراً يا سيدي . ولكن يعزّ عليّ جدّاً أن يفارق يعقوب هذه الدنيا ـ وقد يفارقها بين ليلة وضحاها ـ وأن يفنى ذكره بوفاته . كنت أودّ أن أكافئه في آخر أيّامه بعدد من الجريدة التي وقف عليها خمسين سنة من عمره ،

وفيه رسمه وكلمة طيّبة عنه لمناسبة يوبيله الألماسي . ذلك خير ما يطبق عليه عينيه . يعقوب حقيق بأن يخلد .

ــ ولكن الخلود يا خالتي بالأعمال العظيمة . فماذا فعل يعقوب ليخلد ؟

ــ عاش مائة وخمسة أعوام . ألا يكفي ؟ وهذا نادر بين الناس . وعمل في هذه الجريدة خمسين عاماً بإخلاص وأمانة متناهيين . وكان زوجاً صالحاً في خلال ثلاثة أرباع القرن ، ورجلاً ما آذى إنساناً ولا تمنى الشرّ يوماً لإنسان . نعم ، لم نُرزق أولاداً . ولكننا ما حسدنا مخلوقاً على الأرض . يعقوب نادر بين الرجال .

ــ وأنت نادرة بين النساء .

ــ لا تهزأ بي يا ابني . فالخمسة والتسعون عاماً ليست بالأمر الذي يهزأ به .

ــ لست بهازىء يا خالتي . لقد فهمت الآن ما تطلبين .

ــ أصحيح أنك فهمت ؟

ــ نعم . نعم . فهمت . فهمت .

ــ وهل تردني خائبة ؟

ــ معاذ الله . سأفعل ما أستطيعه في سبيلك وسبيل يعقوب .

ــ بارك الله فيك يا سيدي . لا تؤاخذني . ظلّ العجائز ثقيل . منظرهنّ يؤذي العين وأصواتهن تخدش الأذن .

ـ إلاّ إذا كانت العجوز فتنة .

ـ هه . هه . . . أستودعك الله . لا تؤاخذني .

ـ مرفوقة بالسلامة يا خالتي .

خرجت العجوز من حضرة رئيس التحرير . ومن بعد أن أغلقت الباب خلفها عادت وفتحته لتقول :

ـ أرجو أن يكون الخبر في خمسة أسطر على الأقل . وأن يظهر في عدد اليوم لأقدمه هدية ليعقوب في يوبيل زواجه الألماسي .

ـ سيكون لك ما تريدين ، إن شاء الله . . .

في ذلك النهار صدر عدد « النور » وليس فيه شيء حول الانتخابات ، بل فيه مقال ضافٍ من قلم رئيس التحرير عن مقابلته للعجوز فتنة ، وعمّا دار بينه وبينها من حوار . وقد استرسل الكاتب في تمجيد العمل الصامت والعمال المغمورين ، وفي وصف ما ينطوي عليه عمرٌ جاوز القرن من غريب الصور وعجيب المعاني . وقد جاء المقال من العذوبة والطرافة بحيث تهافت الناس عليه حتى نفدت آخر نسخة منه في ساعات معدودات .

وصدر عدد اليوم التالي وفيه صفحة كاملة حافلة بالرسوم وبالوصف للحفلة السخيّة التي أقامها محررو « النور » وعمالها ليعقوب وفتنة في كوخهما الحقير لمناسبة مرور خمسة وسبعين

عاماً على زواجهما . ومن أروع ما جاء فيها — بعد ذكريات يعقوب — وصف قرص الحلوى الكبير وقد غُرست فيه خمس وسبعون شمعة ، وكيف أن الزوج الطاعن أضاءها بيده . ولما حان وقت إطفائها أخذ يطفئها شمعة بعد شمعة . وينتهي الوصف الشائق بهذه العبارة المؤثرة :

« ونفخ يعقوب على الشمعة الخامسة والسبعين فانطفأت ، ومعها انطفأت . . . حياته . »

شهيدة الشهد

وأخيراً قرّ رأي خيزران على الفرار فالانتحار ، من بعد أن ضاق صدرها بجور أمّها . فهي لا تكاد تذكر في ما تذكر من سنواتها الأربع عشرة أن مرّ بها يوم لم ينلها فيه بعض الشتم وبعض اللطم من أمّها . وكذلك أخوها نعمان ، وكان أصغر منها بسنتين . فقد كانت الأم امرأة عنيفة المزاج ، قاسية القلب، لاذعة اللسان . وكانت لا تطيق لولديها أن يلهوا بأي نوع من اللعب ، أو أن يجلسا ولو لبضع دقائق ، بدون عمل يعملانه . فلا تنفك تحثّهما على الشغل ، وتقرعهما على البطالة ، وتردّد على مسامعهما مثل هذه الآيات : « اليد العاطلة ملعقة الشيطان ومقرعة النحس ، واليد العاملة مطرقة الله ومفتاح السعد . قال الله : انهض فأنهض معك . وما قال : اقعد فأقعد معك . وكيف نقعد وأبوكما — عمّق الله قبره — لم يترك لنا من عدّة العيش غير هذا الكوخ وغير بقرة في آخر عمرها ؟ أنبقى كما نحن إلى الأبد ؟ لا بل نجدّ ونجتهد فنصبح أغنياء ، ويخدمنا الغير بدلاً من أن نخدم الغير . التعب وسخ يغسله قليل من النوم . ومن تعب في أوّل حياته ارتاح في آخرها . الدقيقة فرصة

للكسب . . . فإن فاتت بدون كسب كانت خسارة ، والقروش جيوش تحمي صاحبها من الخلف ومن الأمام ، وعن اليمين وعن اليسار ، واليد الّتي تربح القرش خير من الّتي تنفقه . وأن يذل الإنسان نفسه في سبيل كسب القرش لأشرف من أن يذلها في سبيل استدانته . . . »

وإنّه لمن الإنصاف لأم نعمان القول إنها كانت تطبق مبادئها على نفسها بمنتهى الصرامة . فلا تستريح إلاّ عند الأكل والنوم . وسرعان ما تفرغ في الصباح من أعمال بيتها فتمضي تغسل لهذه الجارة أو تخبز لتلك من جاراتها الأوفر حظّاً منها بالمال والأقلّ حظّاً منها بالنشاط والاقتصاد والحكمة في تدبير شؤونهنّ . أما ولداها فما إن أصبحا قادرين على العمل ، حتّى راحت تدربهما على كسب القرش بشتّى الوسائل ، وعلى الأخصّ في أيّام الصيف حيث يكثر المصطافون في القرية . فكانت ترسل خيزران في كلّ صباح لتبيع لبن البقرة لهم ولتقضي بعض حاجاتهم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . وأما نعمان فكانت تزوده بأقصى ما يستطيع حمله من البقول والفاكهة والبيض ليبيعها هو كذلك ، للمصطافين . فتحدّد له السعر الأدنى وتترك الأعلى لفطنته وذكائه قائلة : « لا ترحم الذين لا يرحمونك . ولو رحم الأغنياء الفقراء لما كان في الأرض فقير . »

وعندما يعود ولداها في المساء كانت أم نعمان تحاسبهما أدقّ الحساب عن كلّ قرش وكلّ حركة وكلّ كلمة . ومهما يكن نصيبهما من النجاح وافراً ما كانت تعدم سبباً – ولو تافهاً – لتوبيخهما على أشياء وأشياء . فقد كان في مستطاع خيزران – مثلاً – أن تقبض خمسة قروش فوق ما قبضته لقاء تنظيفها الحمّام في بيت فلانة . وكان بإمكان نعمان أن يبيع دزينة البيض للسيدة كيت وكيت بزيادة عشرة قروش . . . فهي سيدة اشتهرت بالتبذير ، والقرش عندها « لا قام ولا قعد » . ثمّ كان في مستطاع خيزران ونعمان أن يعودا إلى البيت قبل عودتهما بساعة أو بعض الساعة وأن يجمعا ، وهما في طريقهما إلى البيت ، بعض الحشائش للبقرة ، وبعض النفايات للدجاجات إلخ إلخ . . . حقّاً إنهما لولدان يغلبهما الطيش ، فلا نفع منهما . ويا ويل أمهما تتعب النهار والليل في سبيلهما فيذهب تعبها جزافاً . ألا ليتها كانت عاقراً . . . ألا ليتها لم تولد ولم تلد . . .

*

كان قد مرّ على أخيها خمسة أيّام وهو يعاني آلام الحصبة ، عندما عوّلت خيزران على الانتحار . واتفق في صباح ذلك اليوم المشؤوم من أيام الصيف أن ناولتها أمّها جرّة اللبن لتذهب بها على عادتها وتبيعها للمصطافين . وزوّدتها علاوة على

إرشاداتها المعتادة ، بوصيّة جديدة :

« اسمعي يا خيزران . . . أخوك مريض بالحصبة ، وخير دواء للحصبة هو العسل ، ولا عسل عندنا ، ولا مال لنشتري به العسل . فاسألي أينما ذهبت اليوم عن قليل من العسل واحرصي على أن لا تدفعي قرشاً واحداً . افهمي جيّداً ما أقول : عسل وبالمجّان . . . أفهمت ؟ إذن فانصرفي . »

فهزّت خيزران برأسها بضع هزّات لتؤكّد لأمّها أنها فهمت وصيّتها . ثمّ رفعت جرّة اللبن إلى كتفها وخطت خطوتين برجليها الحافيتين ، وعند الثالثة هوت إلى الأرض صارخة صرخة ذعر لا يوصف . لقد تعثّرت المسكينة بعود في طريقها . وكان من عثرتها أن أفلتت جرّة الصفيح من يدها فانبعجت واندلق ما كان فيها من لبن على التراب فما لبث التراب أن امتصّه .

ما درت الفتاة المنكودة الحظّ كيف تيسر لها أن تعود فتقف على رجليها ثمّ أن تفلت من يدي أمها التي أشبعتها لكماً ولطماً وركلاً وشتائم :

« ليتها الوقعة الأخيرة بجاه ربّ العالمين . ليتني ما عشت لألدك يا أنحس البنات . أين عيناك ؟ ليتك بغير عينين . أين رجلاك ؟ ليتك بغير رجلين . تقعين أمام باب بيتك وفي سهلة لا كدرة فيها ولا مدرة ؟ لا عشت لتمشي وتقعي . يا لضياع

اللبن ! يا لضياع التعب ! ألعلّك تأكلين خبز الوقف ؟ أم لعلّ الله ابتلاني بك لأكفر به وبنعمته ؟ سبحانك يا ربّي ! ما هي إساءتي إليك لتعاقبني مثل هذه المعاقبة ؟ لا كنتِ ولا كانت الساعة التي ولدتك فيها . . . »

لا . . . ما درت خيزران كيف أفلتت من قبضة أمها ، وكيف طفقت تعدو على غير هدى . وإذا بها في واد سحيق تراكمت الصخور في جوفه وعن جانبيه ، وانساب في قعره جدول ماؤه أنقى من البلور ، وشدوه أعذب من شدو الكناري . ولا هي درت مدى المسافة التي قطعتها من بيتها إلى جوف ذلك الوادي . ولكنها أحسّت ما يشبه الجمر في أخمصيها فانحدرت إلى الجدول لتبرد من حرارتهما بمياهه المثلوجة . ولشدّ ما هالها أن ترى الدم يتدفّق من جراح كثيرة فيهما . ومن بعد أن غسلت رجليها وبردت جوفها أخذت تتلفّت ذات اليمين وذات اليسار مخافة أن تكون أمّها قد صممت على اللحاق بها . وقد كان صوتها لا يبرح يهدر في أذنيها فيرتجف لهديره قلبها وتنسدل غمامة على عينيها . وإذ أيقنت أن مخاوفها ما كانت إلاّ من نسج خيالها اطمأنّت بعض الاطمئنان .

وحانت منها التفاتة فإذا بالقرب منها صخرة أعجبها شكلها فكأنّها الكرسيّ العظيم . لقد نتأ منبسط منها فسيح فوق الوادي فكان من الكرسي بمثابة المقعد . وارتفع القسم الآخر عموديّاً

فكان بمثابة الظهر . وتسلّقت الفتاة الصخرة من غير عناء يُذكر ، وجلست على المنبسط الذي فيها وقد غمرته ظلال ناعمة . فاستأنست بسكينة الوادي وظلاله ، وكادت تنسى ما بها . إلاّ أنّها ما لبثت أن عاودتها ذكرى ما كان من أمرها مع أمّها . فانتفضت وسألت نفسها بصوت عالٍ : « والانتحار يا خيزران ، متى يكون وكيف يكون ؟ »

وراحت تفكّر في شتّى الأساليب التي يلجأ إليها القانطون من الحياة ، والتي سمعت الناس يتحدّثون عنها ، فما كانت ترى غير أقربها إليها وهو السقوط من علوّ شاهق . وها هي الصخرة التي من تحتها . ألعلّها من العلوّ بحيث لا ينجو الساقط عنها من الموت ؟ أجل . إنها لكذلك . وكيف يجمل بها أن تسقط ؟ أترمي بنفسها ورأسها إلى فوق أم إلى أسفل ؟ بل الأفضل أن يكون إلى أسفل . . . ذلك أكفل للموت السريع .

وأغمضت الفتاة عينيها فتخيّلت نفسها تهوي من حالق ، فيكاد قلبها يتوقّف عن النبض . ثمّ أحسّت رأسها يرتطم ارتطامة فظيعة بصخرة في أسفل الوادي . فتتشعّث جمجمتها ويتطاير منها المخّ في كلّ جانب فتأتي الثعالب وبنات آوى تلحسه عن الصخور ثمّ ترتدّ إلى جثّتها فتمزّقها بأنيابها وتقشط لحمها عن عظمها ثمّ تزدرد اللحم وتمضي في سبيلها .

في هذه اللحظات بالذات مرّت من فوق رأس خيزران

حمامتان بريّتان ، وحطّتا على صخرة في الجانب المقابل من الوادي حيث راحتا تتناغيان وتتبادلان القبل في غنج وجذل ، فشغلها منظرهما عن صورة جثتها وقد عبثت بها الثعالب وبنات آوى . ومرّ في خاطرها طيف شابّ لطيف في بيت من البيوت التي كانت تبيعها اللبن . وتذكّرت كيف أن ذلك الشاب أخذها مرّة بين ذراعيه ، وعنوة عنها استرق قبلة من شفتيها المتفتحتين لحياة الأنوثة . وما كادت هذه الذكرى الحلوة تغمر قلبها حتى فوجئت بلسعة في عنقها . فانتفضت ووثبت واقفة . ثمّ التفتت إلى الوراء فأذهلها أن ترى جيشاً من النحل في ذهاب وإياب لا ينقطع لهما خيط ، وأن ترى ذلك الجيش يندفع من شقّ في الصخرة التي من خلفها ويعود إليه، فأدركت بفطرتها القرويّة أنها أمام خليّة من النحل البرّي .

وللحال تذكرت وصيّة أمها لها في الصباح . فنعمان في أتون من الحمى وليس يشفيه إلاّ العسل . وها هو العسل في متناول يديها . وهي تحبّ أخاها نعمان محبّة ما فوقها محبّة ، فكيف تنتحر وتتركه تشويه الحمّى؟ ولعلّها تذهب ببصره أو تعطبه في عضو من أعضائه . لا ، لا . إذا كان لا بدّ من الموت فلتمت بعد أن تحمل إلى أخيها ولو قليلاً من الشهد الشافي.

وتفحّصت الفتاة الشقّ الذي كان ينطلق منه النحل ويعود إليه فألفته يتسع لأكثر من يد كيدها . وأبصرت عند مدخله

قرصاً من الشّهد النّاصع البياض . فمدّت يدها وهي تظنُّها قادرة أن تخلعه من مكانه برمّته . ولكنها ما تمكنت إلاّ من قبضة منه انتزعتها بسرعة وحاولت الفرار في الحال ، غير أن النحل ، وقد هاجه حتّى الجنون اعتداؤها الوقح على مملكته ، انقضّ عليها من كلّ صوب . فما بقيت تدري بماذا تتقيه وكيف تتخلّص من وخز إبره الّتي كانت تنغرس في رأسها ووجهها ، وفي يديها ورجليها ، وكلّ ما انكشف وتستّر من جسمها . فالأثواب الّتي كانت تستره لم تكن من الكثافة بحيث تصدّ عنه إبرة النحلة .

*

كان ذلك منذ تسع سنوات . وحتّى اليوم لا زالت أمّ نعمان ، والدمع في عينيها ، تروي لجاراتها وجيرانها وللمصطافين في قريتها كيف أن ابنتها خيزران الّتي ما خلق الله أجمل منها صورة وأرجح عقلاً ضحّت بحياتها في سبيل أخيها . وذلك أنها اقتحمت وحدها خليّة نحل برّي لتأتي أخاها المريض بالحصبة ولو بالقليل من الشّهد الشافي . وكيف أنها ، وقد أوسعها النحل لسعاً ، بلغت البيت في حالة التلف ، وفي يدها شيء من العسل ، فانطرحت أرضاً ، ثمّ مدّت يدها وقالت : « هذا لنعمان . »

وكان ذلك آخر ما نطقت به .

البنكاروليا

ندم أبو شاهين أشدّ الندامة بعد أن قبض الثمن ووضع يده في يد الشاري معوّضاً إياه « البركة » . فقد أحسّ كأنّ الجبل الذي كان واقفاً عليه راح يهوي من تحت قدميه . وكأنّ قلبه هبط بغتة إلى أخمصيه . فغام بصره ، وضاق نفسه حتّى كاد ينقطع . وعلى الأخص عندما رأى القطيع يبتعد عنه رويداً رويداً ، وقد تقدّمه الشاري يحثّه على السير بلغة تفهمها المعزى ، ومشى من خلفه ابن الشاري يسوقه آناً بالعصا وآونة بالحصى .

وبلغ القطيع مضيقاً بين صخور شاهقة تراكم بعضها فوق بعض . وأدرك أبو شاهين أنّه بعد لحظات سيختفي عن ناظره إلى الأبد ، لأن الذي اشتراه سيذهب به إلى ديار بعيدة . وطنّ جرس « الحيمور » طنّة صافية ، عالية ، والحيمور كان كرّاز القطيع المدلّل . فانتفض أبو شاهين انتفاضة الملسوع ، وانبرى يعدو نحو القطيع ملوّحاً بأوراق النقد التي قبضها ثمناً ، وصائحاً بأعلى صوته : « قف ! بالله عليك قف ! لحظة لا غير ! »

وتوقّف القطيع عن السير . وعندما أدركه أبو شاهين سار توّاً إلى « الحيمور » ، فأمسك بقرنيه ، وأغرق عينيه في عينيه ، ثمّ انكبّ يقبّله بلهفة العاشق المتيّم ، وانحدرت دموعه غزيرة على خدّيه ، وارتجف جسمه الجبّار ، فما كنت تسمع إلاّ نشيجه ، وإلاّ صوته المتقطّع ، المتهدّج : « خاطرك يا حيمور ! خاطرك يا حبيب القلب ! وهـذه بوسة أخيرة لكلّ من رفاقك ورفيقاتك . . . الله معك يا حيمور . »

اندهش الشاري لهذا المشهد ، وخُيّل إليه أن أبا شاهين ما عاد إلاّ ليفسخ البيع الذي تمّ حسب جميع الأصول المرعيّة ، أو ليطلب زيادة . وأدرك أبو شاهين ما جال في خاطر الرجل الغريب . فطمأن باله وأكّد له أنّه ما باع يوماً عنزة أو جدياً أو تيساً أو شيئاً آخر ، و « عوّض البركة » ، ثمّ عاد عن بيعه . فالرجال يُربطون بكلامهم لا بقرونهم . وشرفه أعزّ لديه من كلّ مال الأرض . ولكن . . . هو القلب لا يباع ولا يشرى . وقد شاء قلبه أن يعبّر عن حبّه لهذه البهائم التي ربّـاها ورافقها شهوراً وسنين ، مثلما ربّى الآلاف أمثالها منـذ أن ورث المهنة عن والده الذي ورثها عن والده . ولقد شقّ عليه أن يودّع المهنة بتوديعه لقطيعه . ودعا أبو شاهين ثانية وثالثة بالتوفيق للغريب ، ولبث مسمّراً مكانه إلى أن غاب

القطيع عن بصره .

كانت الشمس تنحدر إلى البحر عندما انحدر أبو شاهين في الجبل إلى الضيعة ، وفي يده عصاه ، وفي كتفه جرابه : وفي جرابه زاد يومه الذي ما ذاق منه كسرة قطّ ، وفي قلبه مأتم ولا كالمـآتم . فقد كان كلّما خطا خطوة يودّع التراب والحجارة التي يقع عليها مداسه ، والصخور التي يرتمي إليها بصره ، والأشواك التي تخترق سراويله وتنخزه في جلده ، والينابيع التي طالما عبّ من مياهها ، والعصافير التي كان يطرب لصداحها . فهذه كلّها كانت فقرات حيّة في العمود الفقري الذي قامت عليه دنياه في خلال أعوامه الثلاثة والسبعين . وما كان من السهل عليه أن ينسلخ عنها دون مشقّة بالغة ووجع أليم .

كان على أبي شاهين أن يمرّ في طريقه إلى الضيعة بالزريبة القائمة على رابية في سفح الجبل . وما إن بلغها حتّى عاد الدمع فطفر من عينيه إذ تخيّلها مهجورة من ذلك اليوم وإلى الأبد . وتذكّر الليالي والأصبحة والأمسية التي أمضاها فيها وبالقرب منها ، والخيرات التي تدفّقت عليه من بابها ما بين لبن وجبن وقريشة وشعر وبعر . وحانت منه التفاتة إلى السطول والقدور المصففة تحت الزعرورة وبجانبها فراشه المطوي في بساط أسود . فجفّ حلقه من الأسى ، وارتمى بقامته المديدة على

الأرض وهو لا يحسب أنّه سيجد بعدُ في نفسه القدرة على القيام . ولشدّ ما أذهله أن يرى كلبه رابضاً على قيد خطوات منه . فقد نسيه في موجة الحزن التي غمرته منذ أن سلّم قطيعه المحبوب إلى رجل غريب لقاء قبضة من الأوراق الماليّة المتهرّئة ، وما درى ، ساعة انحدر من القمّة ، أنّه كان يجري والكلب يجري وراءه . واستأنس أبو شاهين بمنظر كلبه الأمين . فاستوى جالساً ، ومسح بكمّ عباءته العرق المتصبّب من جبينه ، وانتزع جرابه من كتفه وألقى بكلّ ما فيه إلى الكلب قائلاً :

– أنت أحقّ مني بهذا الزاد يا نمرود . فلكم سهرتَ على المعزى ولكم طاردتَ الذئاب . ولا سهر بعد اليوم ولا مطاردة . فهنيئاً لك ثمّ هنيئاً لك فلست مكرهاً مثلي أن تخرب بيتك بيدك ليحصل ابنك على ورقة يدعونها « البكنورا » .

ولكن الكلب لم يلتفت إلى الزاد . . . فقد كان في قلبه من الحزن مثل ما كان في قلب صاحبه .

ونهض أبو شاهين ودخل الحظيرة حيث حفن ثلاث حفنات كبار من البعر الممزوج بالتراب فوضعها في الجراب ، وعلّق الجراب بكتفه ثمّ التفت إلى كلبه وقال :

– هيّا بنا يا نمرود .

ودخل أبو شاهين البيت من الباب الخلفي فوجد زوجه

تنفخ في نار من فوقها قدر. ومن غير أن يحيّيها طرح بأوراق النقد في وجهها فكاد بعضها يسقط في النار فتلتهمه لو لم تتداركه أم شاهين بحركة سريعة انفجرت على أثرها بالتقريع والسباب :

— قطع الله رزقك ، وبليت يداك ! ألعلّه مال عدوّك حتى تطرحه في النار ! أم لعلّك سرقته ؟

— ما قطع الله رزقي ، وقطعتِه أنت وابنك شاهين يا ستّ أم شاهين .

— قل لي ، من أين جئت بهذا المال كلّه ؟

— سرقته .

— وممّن سرقته ؟

— من قلبي ، من دم قلبي . سرقته إرضاء لخاطرك وخاطر ابنك يا ستّ أم شاهين !

— لا رضي الله عليك . . . أبِعت العنزات ؟

— بعتها .

— بكم ؟

— بخمسة آلاف .

— عافاك الله ! والحمد لله ! فقد ارتحت من الشعر والبعر .

— ستبكين عليهما دماً يا ستّ أم شاهين .

— ليتني أبكيك بجاه ربّ السموات !

— بل خلي دموعك للبكنورا .

ـ بنكاروليا يا شاطر . يا فصيح اللسان ! بنكا . رو . ليا ! كم مرّة علّمتك لفظها فما تعلّمت ؟ لا عشت تتعلّم .

ـ عفاريت حمر . . . شياطين سود . . . لا بأس . المهمّ أنّك ستصبحين بعد اليوم سيّدة ، ويصبح ابنك أفندي . فلا تخجلين بزوجك ، ولا يخجل هو بوالده يرعى المعزى في رؤوس الجبال .

ـ أكيد . . . أكيد ! سأصبح سيّدة . فأمّ نبهان ليست خيراً مني . ويصبح شاهين رجلاً منظوراً بعد أن ينال البنكاروليا . فخنصره يساوي ألفاً من أمثال ابن مراد الثنين ، وستنزع عنك اللبّادة والعباءة والمداس . فلا يعيرنا الناس بالشعر والبعر . ولا يخجل شاهين ـ وقد يغدو وزيراً يوماً ما ـ بأن يقال فيه إنّه ابن معّاز . ولن تندم على المال الذي أنفقته على علمه ، حتّى وإن لم يبقَ لك من حطام الأرض غير هذا السقف الذي فوق رأسك .

ـ ها إن آخر قرش أملكه أصبح الآن في يدك . ولم يبقَ غير هذا البيت والكرم . فليعطنا الله بركتك يا ستّ أم شاهين ، وبركة شاهين ، وبركة البكنورا . . . آمين !

*

انقضت خمسة أعوام على هجرة شاهين إلى الديار الأميركيّة . وكان قبل سفره ، ومن بعد أن نال شهادته ، قد

ظلّ عامين ونصف العام يفتّش عن عمل فلا يجده ، ويسعى إلى وظيفة في الدولة فلا يحصل عليها . ذلك لأن ما حشا به دماغه من مواد البكالوريا ما كان يؤهله لعمل يرضي خيلاءه وخيلاء البكالوريا . أمّا الأعمال الصغيرة والحقيرة فما كان يفكّر فيها لأنّها « لا تليق بعلمه » وهكذا انتهى به الأمر إلى الهجرة . وقد اضطرّ والده المسكين ، تحت ضغط منه ومن والدته ، أن يبيع الكرم ليكفل له نفقات سفره . وكانت الوالدة لا تنفكّ تعزّي نفسها وزوجها بأن شاهين سيعوّض عليهما القرش ألفاً ، وأنّه سيعود إليهما بالغنائم وسيرفعهما فوق أرفع أهل القرية . أليس أنّه يحمل بنكاروليا ؟ وكانت تدعو زوجها نقّاقاً ونعّاباً كلّما ردّد على سمعها القول الدارج : « لو بدها تشتّي غيمت. »

وذات يوم ، إذ كان أبو شاهين وحده في البيت ينقل بصره من صورة شاهين على الحائط إلى شهادة البكالوريا المعلّقة على الحائط المقابل في إطارها المذهّب ، أقبل عليه ساعي البريد وناوله رسالة عرف في الحال أنها من وحيده في المهجر . وكان لأبي شاهين بعض الإلمام بالقراءة والكتابة . ففضّ الرسالة ، وإذا فيها طلب ملحّ بإرسال كميّة من المال ليعود بها شاهين إلى وطنه وبيته . فقد عاكسته الظروف في ديار هجرته . ولا عجب ، أما قال الشاعر من زمان : « لنا علم وللجُهّال مال » ؟

أطرق أبو شاهين طويلاً ، وحكّ رأسه وذقنه وقد تغطّت بنبت طويل من الشعر الأغبر الكثيف . وتنهّد تنهّداً عميقاً ثمّ عاد ينظر إلى البكالوريا في إطارها المذهّب . وما هي إلاّ دقيقة حتّى عمد إلى تلك الشهادة فأنزلها من الحائط وأخرجها من إطارها ، ثمّ جاء بجرابه وأفرغ ما فيه من بعر ، ثمّ راح يرصف ذلك البعر في صفوف متناسقة على قفا لوح الزجاج الذي كان يحفظ الشهادة من الغبار والعطب . حتّى إذا انتهى من الرصف أعاد الشهادة إلى الإطار ، وأعاد الإطار إلى الحائط . فإذا البعر فيه قد غطّى الشهادة بكاملها . وجاء أبو شاهين بورقة ومظروف وقلم فكتب على الورقة بيده المرتجفة وبلغته البسيطة ما ترجمته :

« يا ولدي شاهين ! هذا كلّ ما أبقيته وأبقته لي البكالوريا من المال ، أُرسله إليك لتستعين به على العودة إلى ديارك . وإلاّ فابقَ حيث أنت . والسلام . »

وطوى الرسالة على شعرتين من شعر المعزى وعلى بعرتين سحنهما سحناً . ثمّ مضى بالرسالة إلى دار البريد وأرسلها مضمونة . وتبعه كلبه ، وكان قد هرم مثله . وعندما عادا إلى البيت منهوكين من الهمّ والوهن ألقى أبو شاهين بعصاه جانباً وانحنى فوق الكلب يمسّد الشعر على رأسه ويقول :

– نمرود ! لقد أخذت بثأرك وثأري من البنكاروليا !

جهنّم

بعد مشاحنات قضائيّة دامت أكثر من سنة ، أصدرت محكمة الاستئناف قرارها بتصديق الحكم الصادر في البداية بحق « المدعو » عدنان سمندل والقاضي « بإخلاء المأجور في غضون ثلاثة أشهر » . والمدعو عدنان سمندل ما كان غير رسام تألّقت شهرته حيناً ثمّ خبت ، و « المأجور » ما كان غير محترف ذلك الشيخ الأشيب وسكنه معاً ، وقد أفنى فيه خمساً وخمسين من عمره ، فبات يحسّه ألصق بجسده من جلده ، وأوثق صلة بروحه من فكره . وبات ، وقد ودع عامه الثمانين منذ شهرين ، لا يطمع في أكثر من أن يستقبل الموت على سريره بالقرب من الموقد ، وتحت السقف وبين الجدران والرفوف والكتب واللّوحات الفنّيّة وغيرها من الأشياء المبعثرة هنا وهناك التي طالما سمعت وقع أقدامه ، وحفيف أحلامه ، وشهدت أعراس قلبه ومآتمه ، وسجلت أحاديثه مع نفسه ومع الذين زاروه من معجبين وفضوليين ، ومعجبات وعاشقات .

لم يبقَ من المهلة المعطاة للفنّان العجوز إلاّ يوم واحد ،

يترتّب عليه في نهايته أن ينتقل بنفسه وبمقتنياته إلى مقرّ جديد . . . وإلاّ طُرح هو ومقتنياته في الشارع بقوّة القانون الذي لا يرحم كبيراً أو صغيراً في سبيل « العدل » ، ولا يُلقي بالاً إلى ما يثيره عدله في الكثير من الأحيان من عواصف نفسانيّة وما يخلقه من مآزق مادية قد يكون الموت ألطف وقعاً منها .

وعندما سئل الشيخ عن إبطائه في التفتيش عن مسكن جديد وفي رزم أمتعته ، ألقى اللوم في ذلك على حرّ الصيف ، وعلى قلّة المساكن وغلائها ، وعلى فتور همّته ، وعلى ضيق ذات يده وأمور كثيرة غيرها .

وهي أعذار كان يحاول أن يخفي بها حقيقة حاله عن نفسه وعن الآخرين ، فلا هو بلغ من الضعف حدّاً يُقعده عن التفتيش . ولا عزّت المساكن فلا يستطيع أن يجد مسكناً يتّسع له ولأمتعته ، وبإيجار معقول . ولا قلّ ما في يده إلى درجة لا تمكّنه من تكليف بعض الشركات رزم أمتعته ونقلها . أمّا الحقيقة فإنّه ما كان يطيق الانتقال من مسكن سلخ فيه خمساً وخمسين سنة من ماضيه ، ولا يقوى على تحمّل ما يتبع ذلك من تغيير في نمط معيشته . فكان كلّما حاول أن يمدّ يده إلى أيّ شيء في محترفه بقصد إعداده للرزم والنقل جمدت يده كأنّ بها شللاً ، وسدّت الغصّة حلقومه ، وانقبض قلبه فكاد

يغمى عليه .

وأخيراً ، من بعد ليلة ما ذاق فيها طعم النوم ، نهض عدنان من فراشه وقد حزم أمره على فعل ما يفعله سفراء الدول عندما تقع الواقعة وتعلن الحرب ، فيمضون يحرقون جميع الأمتعة والوثائق التي قد يؤخّر فرزها ورزمها ساعة الرحيل ، وقد تنفع العدوّ إذا هو حظي بها . . . ومن ثمّ فحرقها يخفّف من متاعب نقلها .

وأضرم عدنان النار في الموقد ثمّ راح يلقمها من غير ما شفقة أوراقاً ورسوماً وكتباً وأشياء كانت عزيزة على قلبه فلا يسمح أن تمسّها يد بأقلّ سوء . وقد تملّكه شعور غريب أشبه ما يكون بشعور من يرى نفسه في الحلم مثقلاً بأعباء كثيرة ، ثمّ يأتيه من ينزع عنه كلّ أعبائه ويعيضه عنها جناحين قويين .

وانطلق يسخو على النار بكلّ ما تقع عليه يداه ، فلا يعفّ عن لوحة ولا عن كتاب . والنار تقابل سخاءه بالتهليل ، وتندلع ألسنتها يميناً ويساراً . وتشبّ إلى فوق في رقصة هي السحر بعينه . وهذه الرقصة تفعل في لبّ عدنان فعل الحُميّا ... فيستزيد النار رقصاً . وتستزيده وقوداً . . . فلا هي تشبع ولا هو يملّ . وكان كلّما تناول شيئاً من الأشياء بيده تأمّله هنيهة ثمّ طوّح به في الموقد المتأجّج قائلاً : « إلى جهنّم ! هنالك تستريح مني ، فأستريح منك . » والغريب أنّه كان يفعل ما

يفعل ويقول ما يقول ووجهه طافح بالبِشر وبهجة النصر . . . فكأنّه القائد المظفَّر في المعركة الحاسمة .

لو أنّ أحداً من الذين عرفوا الفنّان في أوج مجده دخل عليه في تلك الساعة لما خامره أقلّ شكّ في أن الرجل خولط في عقله ، أو أن نوبة من الهستيريا قد عبثت بلبّه وأعصابه . لقد كان يجري على غير هدى في محترفه الفسيح فيتناول الأشياء عن يمينه وعن يساره ثمّ يهرول بها إلى الموقد حيث تلقى نهايتها الجهنّميّة .

ومن هذه الأشياء نفائس كان يعتزّ بها أعظم الاعتزاز ، ورسوم أنفق الأيّام والليالي في صنعها ونالت الجوائز الأولى في المعارض الفنيّة ، ورسائل من عظماء الأرض وعظيماتها كان يحرص كلّ الحرص على سلامتها . ويباهي بها معارفه وأصحابه . فكأنّها من بعد ما نالته من كرامة لديه ، أصبحت الآن قذى في عينيه ، وعقارب في يديه ، أو سلاسل في رجليه ، وهو يحاول التخلّص منها بأسرع الوسائل ويخشى أن تنطفىء النار في الموقد قبل أن يأتي عليها جميعاً ، أو قبل أن تنتهي المهلة المعطاة له « لإخلاء المأجور » ، أو قبل أن تتبدّل حالته النفسيّة فتفتر حماسته وتشلّ الندامة يده .

لقد كان يعمل كمن يريد أن يصفّي حساباته مع الماضي في لحظة واحدة ، وأن يقطع الأواصر التي تربط أمسه بغده .

ولعلّه كان يفعل ذلك تشفّياً من نفسه المرهونة خمساً وخمسين سنة بهذه الجدران وهذه الأشياء حتّى باتت تحسب الحياة جحيماً بدونها . وها هو يبرهن لها أنها تستطيع الاستغناء عنها ، وأنها أحسن حالاً وأخفّ أثقالاً إذا هي انعتقت من ربقتها

*

قد يكون أن شيئاً من ذلك لم يخطر ببال عدنان عندما ثار ثورته الجنونيّة . . . فها هي تلك الثورة تهدأ بغتة كأنّها لم تكن غير زوبعة عابرة . وها هو ينتصب أمام الموقد كالصنم وقد جحظت عيناه ، ويبست يداه ، وانفرجت شفتاه عن بسمة صفراء بلهاء ، والنار ماضية في رقصتها العجيبة وفي التهام الزاد الذي جادت به عليها يده . وكان آخر ما تلقّفته من تلك اليد السخيّة رزمة من الأوراق ما لبثت أن انفرطت ، فبرزت منها صورة فوتوغرافيّة لفتى وفتاة في ريق الشباب ومنتهى النضارة والجمال ، وقد لفّ الفتى عنق الفتاة بذراعه وأمال رأسها إلى صدره ثمّ انحنى برأسه فوق رأسها انحناءة فيها من الرجولة والعطف والحنان وغبطة الحبّ الظافر ما ليس يوصف . وبدت الفتاة بجانبه أنوثةً خلاّبة ، مطمئنّة ، تتدفّق من عينيها الذابلتين ومن تقاسيم وجهها البديع شآبيب من الحبّ الجامح والشهوة الهاصرة . وكان من غريب الاتفاق

أن وقعت الصورة في الموقد على طرفها الأسود فانتصبت في الوسط وأحدقت بها ألسنة النار من جهاتها الأربع فكانت لها في خلال لحظات معدودات إطاراً من اللهيب يعجز عن وصفه أيّ قلم وعن تصويره أيّ فنّان .

*

في خلال تلك اللحظات القصيرات وقف الشيخ مشدوهاً لا يأتي بحركة ولا يكاد يتنفّس . فالصورة في الإطار الناريّ ما كانت غير صورة حبّه الأوّل ، وكان حبّاً أثيماً . فالفتاة التي بجانبه كانت زوجاً لأعزّ صديق له . . . ولكنّه حاول أن يتغلّب على حبّه لها فغلبه حبّه . ولكنّها حاولت أن تبقى أمينة لزوجها فخانها لحمها ودمها . ولكنّه غرق وإيّاها في ساعات من الشهوة المشبوبة ، وفي هذا المحترف عينه ، ذاهلين عن كلّ ما في الكون وقائلين واحدهما للآخر : «إنّ نار الحبّ تطهّر كلّ إثم . »

لقد مضى على ذلك العهد أربعة عقود وأكثر . فما عاد يذكره عدنان إلاّ نادراً ، ومن غير أن يرتفع نبضه أو ينخفض . ولا هو يدري اليوم إذا كانت تلك المرأة وزوجها على قيد الحياة وأين . فقد انقطع ما بينه وبينها من زمان . أما الآن ، وقد راحت ألسنة النار الراقصة أمام عينيه تلحس رسمه ورسم الفتاة ، فالقشعريرة تهزّ جسمه هزّاً ، وقلبه

ينكمش حتّى ليكاد يتوقّف عن النبض ، ورأسه يدور كأنّه جرع خابية من الخمر . فقد خُيِّل إليه – وهو الرجل الذي كان يتبجّح بإلحاده – أن الموقد الذي أمامه هو جهنّم بعينها . جهنم التي تتحدّث عنها الأديان وتنذر بها الخارجين على إرادة السماء . وأن النار التي تلتهم الآن صورته وصورة التي كانت عشيقته منذ أربعين عاماً هي نار جهنّم ، بل إنّه راح يحسّ تلك الصورة من الورق كما لو كانت صورته وصورة عشيقته بلحمهما ودمهما ، ويحسّ النار تشويه وتشويها وقد ملأت رائحة الشواء منخريه ، وها هو اللهيب يقترب من ذراعه حول عنق الفتاة ، ثمّ من ذقن الفتاة ، ثمّ من عينيها . . . لا ، لا . . . لن تأكل النار تينك العينين الحالمتين بالحبّ العنيف الطافحتين بالأنوثة المتناهية والجائعتين إلى ملذّات الحياة ومفاتنها .

وينتفض الشيخ انتفاضة عنيفة . . . ومن غير وعي منه يمدّ يده إلى الموقد لينتزع منه الصورة قبل أن تعبث النار بعيني الفتاة . ولكنه لا يعود من الموقد إلاّ بحفنة من الورق المتفحّم المتجعّد ، وبيد قبّلتها النار قبلات عنيفة ، حرّاقة . . . ويغمى عليه فلا يستفيق إلاّ على جرس التليفون يدقّ دقّات ملحّة متواصلة . ولشدّ ما يذهله أن يسمع صوتاً متهدّجاً جدّاً ، وبعيداً جدّاً ، وفيه من اللّوعة أهوال ، فيقول له

أوّل ما يقول :

« عدنان ! إنّني في جحيم من الآلام وما من منقذ سواك ،
أفلا تلطّفت وأذنت لي بزيارتك الآن . . . ولو لدقيقتين ! »

فيجيب عدنان بمنتهى الدهشة والذعر :

« أما أنا فقد عدت الساعة من جهنم . . . ولست أريد
أن أدخلها ثانية — ولو لدقيقتين ! »

وكان الصوت صوتها . . .

السرنوك

كان قبل الفطام طفلاً جميلاً ، يمور باللحم وبالعافية . فما تكاد تجسّ له عظماً ولا يكاد يعرف البكاء . وعلى سبيل التحبّب ، ومن باب وصف الشيء بنقيضه ، لقّبته أمّه بالسرنوك . والكلمة عاميّة فصيحها السركوك أي المهزول .

لكنه ما إن فُطم عن ثدي أمّه بعد سنتين من الرضاعة حتى راح ينحل ويستطيل . وقد بلغ من نحوله وطوله أن والديه أخذهما جزع شديد على حياته . إلاّ أن الطبّ ما وجد فيه علّة من العلل المعروفة . وها هو اليوم في السنة الأخيرة من دروسه الثانويّة ، وقد ودّع ربيعه العشرين ، والطول والنحول فيه فرسا رهان . فلا عجب إن لبسه لقب « السرنوك » لبس الخطيئة للخاطىء . فما يكاد أحد من أهل بيته وجيرانه وأترابه يناديه باسمه الحقيقي إلاّ شقيقته زليخة ولها من العمر سبع عشرة سنة . وهي على عكسه ، بدينة وقصيرة وبينه وبينها مودّة تفوق التي بين أخٍ وأخته .

لعلّ أطول ما فيه بالنسبة إلى سائر أعضائه هي أصابعه ورجلاه ثمّ أنفه . فالأنف أرنبة عالية ، مستطيلة ، وحادّة

حتّى لتشبه حدّ السيف . وهي تنتهي بازورار طفيف إلى اليسار وإلى أعلى ، وبمنخرين دقيقين ، ضيقين ، إذا نظرت إليهما تعجّبت لصاحبهما كيف يتنفّس ملء صدره . أمّا أصابعه فعظام ممطوطة ومغلّفة بجلد شفّاف ومسلّحة عند أطرافها بأظافر طويلة تبدو عليها عناية فائقة من حيث هندستها ونظافتها . وأبرز ما في تلك الأصابع عقدها ، فهي ثخينة نافرة . وأمّا رجلاه في حذاءيهما الطويلين فقاربان صغيران يجريان على اليابسة .

يمشي بخطوات واسعة فيترنّح ذات اليمين وذات اليسار وإلى الأمام وإلى الوراء ، موقّعاً حركات رأسه على حركات بدنه وملوّحاً بذراعيه على مداهما .

ولعلّ أقصر ما فيه لسانه . فهو قليل الكلام إلى حدّ بعيد . إلاّ أنّه يكثر من الإشارة مستعيناً برأسه ويديه وحاجبيه وكتفيه . وقد تظنّ أن به لكنة أو عيّاً أو كسلاً عقليّاً . لا شيء من ذلك بل إنّك إذا اتّفق لك وحملته على الكلام سمعت نطقاً صحيحاً ، ونبرة سريعة . ونغمة عذبة ، وأبصرت بريقاً لطيفاً في عينيه الواسعتين المكلّلتين بأهداب طويلة مقوّسة وحاجبين دقيقين كأنّهما قنطرتان . ووالدته تفسّر قلّة كلامه تفسيراً قد لا يكون بعيداً عن العقل والمنطق . ففي اعتقادها أن نبهان — ذلك هو اسمه الحقيقي — أصبح برِماً بالناس وسماجتهم

لكثرة ما يهزأون بطوله وهزاله . فآثر الاحتجاب عنهم بحجاب من الصمت . ولأنّه واسع الصدر ، ذكيّ القلب ، قويّ الشكيمة تراه يأبَى على نفسه أن يظهر أمام أحد في مظهر المستاء أو المتألّم أو العاتب والشاكي ، بل هو يردُّ كيد الناس إلى نحورهم بما يبديه من قلّة الاكتراث بأشواك سخرياتهم . حتى إنّه ، على سبيل النكاية ، لا يجيب من يناديه باسمه ويجيب الذين ينادونه بلقب « سرنوك » في حين أنّه يكره ذلك اللقب كره الفأر للهرّ . فصمته ، وفي الأصحّ قلّة كلامه ، ضربٌ من الترفّع عن خساسة الناس والتقزّز من خشونة أذواقهم وغلاظة قلوبهم ، مثلما هو مظهر من مظاهر عزّة النفس والكرامة .

ذات يوم عاد نبهان من المدرسة جرياً على عادته . ولكنه خلافاً لعادته ، ما انصرف إلى تحضير دروسه في الغد ولا إلى المراجعة استعداداً لامتحاناته النهائيّة ولم يبقَ بينه وبينها غير أسبوعين . وكان وقت العشاء فتناول الطعام مع أهل بيته . ثمّ كان وقت النوم فانطلق إلى فراشه من غير أن تبدر منه أية بادرة تنمّ عن أقلّ تغيير في مجرى حياته وتفكيره .

وكان الصباح ، فقام نبهان بكلّ ما اعتاد القيام به من حركات في الصباح . وأزفت ساعة الذهاب إلى المدرسة . لكن نبهان اعتصم بزاوية من مقعد سانداً رأسه بكفّه

اليمنى ومرسلاً نظره إلى السقف . فاقتربت منه والدته وسألته بلطف :

« الساعة بعد الثامنة يا ابني . أما تنوي الذهاب إلى المدرسة اليوم ؟ » فرفع نبهان حاجبيه وكان معنى ذلك « لا » .

– « أليس عندكم دروس اليوم ؟ » فهزّ نبهان رأسه بالإيجاب .

– « إذن ؟ » فكان الجواب هزّتين صعوداً وهبوطاً من الكتفين .

– « أتشكو وجعاً يا ابني ؟ »

– « لا . »

– « هل أهانك أحد أساتذتك أو رفاقك ؟ » – الجواب ابتسامة صفراوية .

– « أم لعلّ دروسك اليوم من الصعوبة بمكان ، وأنت تتهرّب منها ، وعهدي بك من السبّاقين في صفّك ؟ »

عندها انتفض نبهان وأجاب بنبرة عصبيّة :

« ما تعوّد السرنوك أن يتهرّب من الصعاب . »

وطال الحوار على ذلك المنوال بين الأم وابنها فما ظفرت منه بجواب يرضي عقلها ويبرّد قلبها . وفي النهاية أعلنت اندحارها ولطمت جبينها بكفّيها قائلة : « لك الله يا ابني . افعل ما تشاء . » وانصرفت إلى أشغال بيتها .

ما كان حظّ الوالد في استنطاق ولده بأفضل من حظّ الوالدة . وجلّ ما استنتجه الاثنان أن ابنهما مضرب عن الدرس والمدرسة . أما زليخة فكانت أكثر لباقة وأوفر حظّاً من والديها إذ طلبت إلى أخيها أن يرافقها في نزهة بعد العشاء ولم توجّه إليه سؤالاً واحداً بشأن نفوره الفجائي من المدرسة . فما كان منه ، وقد بلغا في سيرهما مكاناً بعيداً عن مسامع الناس وأبصارهم ، إلاّ أن ابتدرها هو بسؤاله :

— « أتؤمنين بالسرنوك يا زليخة ؟ »

— « أؤمن . »

— « أتؤمنين بأنّه يكره الشرّ ؟ »

— « أؤمن . »

— « وإن قيل لك إن أخاك السرنوك يدبّر مكيدة لاغتيال إنسان من الناس ؟ »

— « لا أصدّق . »

— « ما قولك في معلم ينظم أحد تلاميذه قصيدة ويعرضها عليه لإبداء رأيه فيردّها إليه بعد حين ويأمره بتمزيقها فهي لا نظم ولا شعر . ثمّ لا يمضي شهران حتّى يطالع ذلك التلميذ قصيدته منشورة برمّتها في أمهات الصحف وممهورة بإمضاء معلّمه وقد نالت الجائزة الأولى في مسابقة شعريّة عالميّة ؟ »

— « رجل خسيس من غير شكّ . »

— « ما قولك بذلك المعلّم يهدّد ذلك التلميذ بالسقوط في امتحاناته النهائيّة إذا هو فضح الأمر وفاه بكلمة واحدة عنه لأحد من الناس ؟ هو شاب يتيم فقير ، خجول ، كتوم ، ما باح بسرّه إلاّ لي . »

— « خساسة فوق خساسة . »

— « وذلك المعلّم مدعو بعد أيّام إلى حفلة حافلة تُقام على شرفه ، وفيها تُقدّم له الجائزة وهي كميّة من المال لا بأس بها . ويُعلّق على صدره وسام رفيع ، فلا يخجل ولا يرفض ! »

— « إنّه لجدير بأن يُجلَد ويُتفل عليه ثمّ يُرجم . »

— « اتفقنا . »

— « نبهو ! . . »

— « ما لوجهك يمتقع ولصوتك يرتجف ؟ »

— « ألعلّك ذلك التلميذ ؟ »

— « أنا ؟ ومتى كنت شاعراً ويتيماً ؟ . . »

— « إذن ما شأنك من رجل ما سرق منك شيئاً وسرق من غيرك ؟ »

— « ليته سرق آخر فلس من جيبي . ليته سرق من ذلك التلميذ قميصه . ليته سرق كلّ ما في المصارف من أموال ومجوهرات . »

— « ولكن ؟ »

— « ولكنه سرق نبضات قلب ووثبات روح . — سرق دماً متوهّجاً وشهرة ما تزال في المهد — سرق القربان المقدّس المقدّم للإله الأقدس . »

— « دع صاحب القربان يقتصّ من سارق قربانه . أما أنت فما دخلك في الأمر ؟ »

— « القربان قرباني مثلما هو قربان الله . وستكون يدي ويد الله معاً في إنزال القصاص . »

— « نبهو ! . . »

— « زليخة ، زليخة ! أنت أدرى الناس بأن أخاك السرنوك ما نصّب نفسه يوماً من الأيّام ديّاناً للناس . »

— « أمّا اليوم ؟ »

— « أما اليوم . . . فالسرنوك آلة في يد الديّان . »

— « وأيّ الناس ليس آلة في يد الديّان ؟ »

— « وموت بعض الناس خير من حياتهم . »

— « نبهان ! — أخي — حبيب قلبي ! رجوتك ألاّ . . . »

— « اتّفقنا . اتّفقنا يا زليخة . » — وغيّر السرنوك مجرى الحديث وأوسع خطاه ليقطع على شقيقته طريق العودة إليه .

*

غصّت قاعة الاحتفال بالمدعوّين وبينهم الوزير والنائب والوجيه والتاجر والشاعر والكاتب والصحفي . وقد رأت لجنة الحفلة ، زيادة في تكريم المحتفى به ، أن تدعو زملاءه الأساتذة في المدرسة التي يدرّس فيها وصفّ المنتهين من تلاميذه ، وأن تكلّف المنتهين اختيار واحد منهم لإلقاء كلمة مناسبة في أستاذهم العظيم . فاختاروا السرنوك بإلحاح منه .

تكلّم مدير الحفلة ثمّ وزير المعارف الذي علّق على صدر المحتفى به أسمى وسام للمعارف . وتلاه أحد الشعراء ثمّ نقيب الصحافة ، ولم يبقَ غير السرنوك وغير رئيس لجنة المحكمين الموكول إليه تقديم الجائزة ، ثمّ كلمة الختام للمحتفى به . وأطنب الخطباء أبعد الإطناب في مدح عبقريّة المحتفى به وأخلاقه . وكانت النبرة الغالبة في كلامهم نبرة الإعجاب بتواضع ذلك الشاعر الفذّ الذي بلغ الستّين من عمره وما نشر على الناس قصيدة واحدة من شعره قبل التي ربحت الجائزة . حتى صحّ فيه القول : سكت دهراً ونطق دُرّاً .

وجاء دور السرنوك فاعتلى المنبر بقامته المديدة الهزيلة متمايلاً يميناً ويساراً ، وأدار طرفه في الحضور وقال بصوت جهوريّ :

« أبلغُ الشعور ما استعصى على الشعر . وأكرم الشعراء من ضنّ بشعره على الناس . وأعظم الناس من ترفّع عن مديح

الناس . تلك هي المثالة النبيلة التي ما انفكّ أستاذنا المحبوب يردّدها على مسامعنا الكرّة بعد الكرّة . فلا عجب أن يكون أبلغ الشعراء وأكرمهم من غير أن ينظم شعراً . مثلما لا عجب أن يكون أعظم الناس لأنّه أبعدهم عن الغرور وحبّ المجد والظهور .

« وها أنا أعطيكم مثالاً صغيراً من عظمة أستاذنا ونبل روحه . وأبوح بسرّ ما باح به لغيري ، واثقاً من مغفرته وحلمه . فهو غفور حليم !

« نظم أحدنا قصيدة وعرضها عليه . فما هشّ لها ولا بشّ . بل نصح لناظمها بأن يمزّقها وأن يقلع عن معاقرة القوافي . وتلك القصيدة بعينها هي التي تحتفون بها اليوم . والذي نظمها رفيق من رفاقنا وهو الآن بيننا ، وكلّنا شهود له . أنقول إنّ أستاذنا العظيم سرقها ؟ معاذ الله . ولكنه من فرط إعجابه بها خشي عليها من الضياع مثلما خشي على ناظمها من الغرور الباكر وعلى عبقريته من أن تطمرها رغوة العيش وغبار معمعة الحياة . لذلك تبنّاها ومهّد لها ولصاحبها هذا التمهيد الجميل الذي تشهدون . وهو سيعلن بنفسه وبفصاحته التي لا تجارى اسم الناظم وسيتنازل له عن الجائزة وذلك لعمري هو النبل كلّ النبل . عاش أستاذنا النبيل ! »

*

بقي الناس أيّاماً يتحدّثون عن ذلك الاحتفال ، وعن بطولة السرنوك ، وعن الشاعر الفتّي الذي تألّق نجمه عالياً في سماء الشعر . أما السرنوك ، وأمّا رفيقه الشاعر فكانا جدّ فخورين بأنّهما رسبا في امتحاناتهما النهائيّة .

ويذوب الجليد

من بعد أن اطمأنّ ضرغام إلى أن زوجه وصغاره الثلاثة قد استسلموا جميعهم للنوم ، نهض إلى الباب فأوصده بالمزلاج من الداخل ، ثمّ أطفأ السراج ، وأوى إلى فراشه وصلّى صلاته ، ونام . وصلاة ضرغام آية في الإيجاز :

« يا ربّ أشبعنا من خيرك ولا تحوجنا إلى أحد غيرك . »

ولكنه في هذه الليلة بالذات — وقد كانت ليلة رأس السنة — أضاف إلى جملته المعتادة دعاء بأن يجعل الله السنة الجديدة سنة خير وسلام له ولعائلته والناس أجمعين . ولأنّه عامل بسيط عدته زنده ومعوله ، فالخير الذي كان يرجوه لنفسه ولعائلته هو أن يبقى له زنده ومعوله ، ريثما يكبر صغاره فيجهز كلاًّ منهم بمعول كمعوله ليكونوا عوناً لأنفسهم ولوالديهم عندما تدركهما الشيخوخة .

وشيء آخر كان يرجوه ضرغام من أعماق قلبه ، ولكنه يئس من الحصول عليه . فما بقي يزعج ربّه بالصلاة من أجله . ذلك أن زوجه التي كانت مبعث الحسد له من جميع جيرانه لحسن صورتها ، ولما فُطرت عليه من الذكاء والإخلاص

والمقدرة على تصريف شؤون البيت ، أصيبت بضرب غريب من المسّ بعد وفاة بكرها في مثل هذه الليلة منذ عامين . فقد يتّفق لها أن تصمت أيّاماً متوالية من غير أن تنقطع عن العمل . وقد تنقطع عن العمل أيّاماً ولا تنفكّ تخاطب أشخاصاً لا وجود لهم إلاّ في مخيلتها ، أو تعاتب الله ومخلوقاته عتاباً مرّاً . وأحياناً تعود سيرتها الأولى فكأنّها لا فقدت بكرها ، ولا اكتوى قلبها ولو بجمرة واحدة من جمرات الحزن .

ما لبث الدفء أن دبّ في جسم ضرغام وفراشه ، فتخدّرت أعصابه وتباطأت ثمّ تلاشت أفكاره ، واستغرق في سُبات عميق . وكان آخر ما جال في خاطره أنّه لا يستطيع كباقي الناس أن يحمل إلى أولاده الهدايا في رأس السنة . ولكنه سيأتيهم بقليل من اللحم في الغد . « الأعياد للأغنياء . . . أما نحن . . . » ولم يمهله النوم ليكمل جملته .

وقبيل منتصف الليل أفاق ضرغام من نومه شاعراً كأن رجليه قطعتان من جليد . ألهذا الحدّ اشتدّت وطأة الصقيع في خلال ساعات معدودات ؟ ولشدّ ما أذهله عندما استوى جالساً في فراشه والتفت نحو الباب ، أن يرى شقّة واسعة من السماء تتغامز فيها النجوم وكأنّها تتغامز عليه ، ثمّ أن يسمع الريح تصفر في جوانب الكوخ ، وأن يبصر اللحاف الذي فوق بدنه يرتقص من شدّة الريح . والباب في كوخ ضرغام كان

المنفذ الوحيد للنور والهواء . فمن أين النجوم ، ومن أين الريح ؟ ألعلّه نسيه مفتوحاً ؟ ولكنه يذكر جيّداً أنّه أوصده من الداخل قبل أن ينام . ألعلّ زوجه خرجت في حاجة من الحاجات وسها عن بالها أن تغلقه ؟

– زهرا ! . . زهرا ! . .

ولكن زهراء لا تجيب . . .

عندئذ انطلق ضرغام إلى الباب فأوصده ، ثمّ إلى السراج فأوقده ، وتفقّد الصغار فإذا بهم يغطّون غطيط الأبرار غير مبالين بالصقيع يلسع أرجلهم العارية وقد نسفت الريح عنها اللحاف . أما فراش الوالدة الممدود بجانبهم على الحصير فلم يكن فيه أحد .

ردّ ضرغام اللحاف على صغاره ووقف هنيهة لا يدري ماذا يفكّر أو ماذا يقول أو يفعل . أيكون أن زهراء انطلقت إلى المقبرة حيث يرقد بكرها الحبيب ؟ . . ولكنها ما فعلت ذلك في العام الماضي ولا في الذي قبله . ومن ثمّ فهو يعرف شديد خوفها من السير وحدها في الظلام . والليل دامس ، والبرد قارس ، والمقبرة في مكان قفر بعيد ، وليس في الكوخ الضيّق زاوية تستطيع زهراء أن تختبىء فيها .

إذن أين هي؟ ألعلّ جنّيّة اختطفتها ؟ . . قد يكون . . . قد يكون . . . ولكن لا مناص من التفتيش على كلّ حال .

وحمل ضرغام السراج وشاء أن يخرج به من الكوخ . إلاّ أنّه ما إن فتح الباب حتّى أطفأت الريح السراج . فوضعه أرضاً ومشى غير واثق من خطواته ولا من اتجاهاته . ونادى «زهراء» ثلاثاً فما سمع لندائه جواباً .

وبغتة لمح لهيباً يتصاعد من أسفل التلّ الذي قام عليه كوخه. وكان يعلم أن ليس هنالك من مساكن بشرية . بل هنالك خزان كبير للماء ، أقامه أحد المّلاك لري بساتينه في الصيف . وهذا الخزّان يتجمّد الماء فيه شتاء فيقصده الفتيان والفتيات للتزلّج على جليده . ولكن في النهار لا في الليل . ألعلّهم اختاروا أن يستقبلوا السنة الجديدة وهم يتزلجون على ضوء المشاعل ؟ . . لله من عبث الشباب ! وهنيئاً لهم صفو بالهم وهرجهم ومرجهم !

*

وتعالى اللهيب حتّى كاد يضيء لضرغام طريقه . فما شعر إلاّ ورجلاه تقودانه في اتجاه اللهيب . وأخيراً أدرك الخزّان وإذا النار التي أبصر لهيبها من بعيد تضطرم على سطح الماء المتجمّد فيه ، وإذا امرأة منفوشة الشعر ، محمومة الحركات ، تغذي النار من كومة حطب قريبة . لقد خالها ضرغام لأوّل وهلة جنّيّة ، ولكنه ما لبث أن عرف فيها زوجه . فصعق وتسمّر في مكانه واعترته رجفة من أمّ رأسه حتّى أخمصيه .

وأخيراً ، من بعد أن لبسته روحه ، صاح بصوت فيه الكثير من الدهشة والهلع :

— زهرا . . . ما هذا الذي تعملين ؟

فأجابته زهراء ببرودة متناهية ، وهي تغدو وتروح بين كومة الحطب والنار ، وكأن وجوده هناك في مثل تلك الساعة كان أمراً طبيعيّاً للغاية لا يستحقّ الدهشة ولا الاستغراب :

— إنّني أدفىء قلب الله . لعلّ العام الجديد يولد وليس في قلبه جليد !

— ومن أدراك أن في قلبه جليداً ؟

— الجليد الذي في قلبي ، وفي قلب الأرض ، من حواليّ ، وفي قلب السماء من فوقي . أما ترى إلى الأرض كيف تلحفت بالجليد ؟ وإلى السماء كيف تتنفّس جليداً ؟ . . التّراب ، والصخر ، والنهر ، والشجر ، والنجوم — كلّها جليد . والناس كلّهم جليد . وكيف يولد العام الجديد دافىء القلب في عالم كلّه جليد ؟ لهفي عليه . إنّه لفي حاجة إلى النار .

— ولكن نارك لن تذيب الجليد في الأرض والسماء وفي قلوب الناس .

— بلى . بلى . منّي حطبة . ومنك حطبة . ومن غيرنا حطبة . وهكذا تدفأ الأرض والسماء ويدفأ الناس . أنا لا أطيق الجليد . لا أطيق العيش في دنيا يدها جليد ، وعينها جليد ، ولهاتها

جليد ، وقلبها جليد . قليلاً من النار . مني عود . ومنك عود . ومن كلّ إنسان عود . . . ويذوب الجليد . . .

– ولكنه لا يذوب حتى يعود فيتجمّد .

– يعود فيتجمّد فنعود فنضرم النار من جديد . منّي قشّة . ومنك قشّة . ومن غيرنا قشّة . حتّى القشة إذا التهبت أذابت الجليد . لنلتهب كلّنا – أنا وأنت وجميع من في الأرض والسماء . ليلتهب الكون بأسره .

– وفي النهاية يحترق ويترمّد .

– الرماد خير من الجليد . وفي الرماد الدافىء يعود فيولد عالم دافىء . وعالم دافىء تكون قلوب بنيه دافئة ، وأناس قلوبهم دافئة أعوامهم أبداً دافئة .

– ما دخل الأعوام في القلوب ؟

– الأعوام تولد في القلوب وتُدفن في القلوب . والذين أجلدت قلوبهم بالبغض والشح والنفاق والجشع والظلم أجلدت أعوامهم بالحرب والجوع والعفن والحرمان والموت . فلا خير لهم في أن يدعو واحدهم للآخر : « كلّ عام وأنتم بخير » . والذين دفئت قلوبهم بالمحبّة والجود والصدق والرضى والعدل دفئت أعوامهم بالسلام والبحبوحة والعطر والعافية والطمأنينة فكانوا في خير وإن لم يقل لهم أحد : « كلّ عام وأنتم بخير » .

– زهرا ! زهرا ! عودي إلى رشدك . عودي إلى بيتك . ما هذا الذي تهذين به ؟ . . ومن نحن لندفىء الكون ونصلح الزمان ؟ . . يا لضياع الحطب تحرقينه فوق هذا الجليد . وأنت لو أحرقته في بيتك لأدفأت نفسك وصغارك على الأقلّ . هيّا إلى البيت . هيّا معي .

– بل تعالَ أنت وناولني قليلاً من الحطب . قليلاً من الحطب ويدفأ الكون – ويدفأ العام الذي يولد – ويدفأ صغارنا كذلك – ويدفأ حتّى بكرنا في قبره . منك حطبة . ومني حطبة . تعالَ . تعالَ . إكراماً لبكرنا في تربته . لهف قلبي عليه ... لقد عاش عمره القصير محروماً من لذائذ الحياة . وهو ينام الآن في حفرة تلحّفت بالجليد . حرام . حرام . . .

وفاضت مقلتا زهراء بالدمع ، وأخذت ترتجف كالورقة . ثمّ هوت بغتة إلى سطح الخزّان المتجمّد بالقرب من النار . فوثب ضرغام إليها في الحال واجتذبها بعيداً عن النار مخافة أن تلتهب ثيابها ، فتذهب هي كذلك ضحية محاولتها الخرقاء بأن تدفىء قلب الكون . وعندما شعر أنها عادت فملكت أعصابها ساعدها على النهوض . وما كاد يبلغ بها حافّة الخزّان حتّى أخذ الجليد يتشقّق من حول النار التي عليه فابتلعتها المياه التي تحت الجليد ولم يبقَ منها غير عمود من الدخان المتصاعد في الفضاء . فشكر ضرغام ربّه على نجاته العجيبة

ونجاة امرأته المسكينة من الكارثة وقال في قلبه إن لصغاره لا شكّ أجراً عند الله .

وسار ضرغام بزوجه نحو الكوخ وهو لا ينبس بكلمة ، وهي تتوكّأ على ساعده وتتنهّد من حين إلى حين تنهّداً عميقاً ولكنها لا تتكلّم . وكانت كلّما انزلقت رجلها على التّراب المتجمّد ، أو تعثّرت بحجر أو بغصن شجرة تتوقّف قليلاً عن السير وترفع بصرها إلى النجوم المصقوعة في أجوائها البعيدة وتتمتم كلمات غير مفهومة ، ثمّ تمضي في المشي غير آبهة بالظُّلمة ولا بوعورة الطريق .

وعندما اقترب الزوجان من الكوخ سمعا رنين نواقيس بعيدة ، ثمّ هدير مدافع وجلبة زمارات وصفارات . فقالت زهراء لضرغام :

ــ أين نحن ؟

فأجابها ضرغام :

ــ نحن في طريقنا إلى البيت .

ــ وما هذه النواقيس والمدافع ؟

ــ هي البشارة بولادة العام الجديد .

ــ العام الجديد ؟ . . ولكنني أبصرته يغرق في بحر من الجليد . أو أنّني هكذا حلمت .

فقال ضرغام هازئاً :

ـ مني قشّة . ومنك قشّة . ومن كلّ إنسان قشّة ـ ويذوب الجليد .

ـ اي . اي . هكذا كلّمني الملاك في المنام . مني قشّة . ومنك قشّة . اي . اي . ويذوب الجليد . وهل اشتريت أحذية جديدة للأولاد في رأس السنة ؟

ـ لست أملك ثمن أحذية جديدة . وأملك ثمن قليل من اللحم والحلوى آتيهم به في الغد .

ـ اي . اي . ضرغام . قليل من اللحم . قليل من الحلوى . قليل من الرحمة والغفران ـ ويذوب الجليد في كلّ مكان ¤

ثائـــــران

ليلٌ عابق بأنفاس الربيع ، طافح بشعاع القمر ، مزمّل بجلابيب سكينة تتلاقى في غضونها كلّ أصناف القلوب — وقلوب العشّاق على الأخصّ .

ولكن الفتى والفتاة الجالسين تحت عريش من الياسمين في حديقة الجامعة ، ما كانا يتطارحان الشوق والهيام . إنهما طالبان في السنة الرابعة من كلية الآداب ، والوجوم البادي على وجهيهما أبعد ما يكون عن وجوم عاشقين خانهما النطق أو تنكّر لهما الحبّ . لقد طال سكوتهما ، وما كان يجدي الفتاة أن تتنحنح من حين إلى حين . فجليسها قد تسمّرت عيناه بالأرض وتبكّل فكّاه ، فما تتحرّك له شفة . وأخيراً ضاق صدرها ، فأخذت الكتاب الملقى بجانبها على المقعد ، ووضعته في حضنها ، ثمّ ضربت عليه بكفّها وقالت :

— وأخيراً ؟ أما آن أن تنطق يا فؤاد ؟

فانتفض فؤاد كمن كان في سُبات عميق ، وهزّته بغتة من كتفه هزّة عنيفة . ومن غير أن يرفع بصره عن الأرض أجاب بصوت متلجلج :

ـ بلى . بلى . عذرك يا ثريّا . لكأن لساني قطعة من الحديد في فمي .

ـ ولماذا ؟ أما جئت بي إلى هنا لتفضي إليّ بأمر جلل ؟ فما هو ذلك الأمر ؟ أم لعلّه من الهول بحيث لا تستطيع أن تتحدّث عنه ؟

ـ إنّه لكذلك يا ثريا . ومن ثمّ فالخجل يعقل لساني .

ـ الخجل ؟ وممّن ؟

ـ منك يا ثريّا ومن . . . نفسي .

ـ مني ؟ ! لكأنّك ما عرفتني قبل اليوم ، وكأنّنا ما لعبنا معاً صغيرَيْن في ساحات القرية ، ولا نحن ندرس اليوم دروساً واحدة في جامعة واحدة .

ـ ليتنا ما كبرنا . بل ليتني وحدي ما كبرت . بل ليتني ما وُلدت .

ـ فؤاد ! ما هذا الذي تكلّمني به ؟ وأمس كنت تبني القصور والعلالي وتفرش الدنيا رياحين . ماذا حلّ بك ما بين أمس واليوم ؟

ـ أمس كنت إنساناً .

ـ واليوم ؟

ـ واليوم . . . اليوم أنا . . .

وخُيّل إلى ثريّا أن الفتى الجالس بجانبها قد غصّ بريقه ـ

بل بدمعه . فانقبض قلبها عطفاً عليه . وشاءت أن تقول شيئاً يزيل غصّته فما وجدت على الفور ما تقول . واكتفت بأن أخذت يده في يدها وشدّت عليها بكلّ قوّتها . ومن بعد فترة من الصمت المرهق عادت فقالت :

ـ أتبكي يا فؤاد ؟

فأجابها والغصّة تخنقه :

ـ لا . وحريّ بي أن أبكي .

ـ ما عهدتك مائع العينين والقلب .

ـ ولا عهدتني . . . لصّاً .

وقعت الكلمة الأخيرة على ثريّا وقع الصاعقة . فما كادت تصدّق أذنها . وكانت تجزم بأن جليسها يمزح لولا الاضطراب العميق البادي في ملامحه وفي صوته وفي كلّ حركة من حركاته . أيمكن أن يكون لصّاً هذا الشاب الذي غالب اليتم والفقر منذ الصغر فشقّ طريقه من الدراسة الابتدائيّة إلى الثانويّة إلى الجامعيّة بالصبر والحرمان والجهد المضنك وبإرادة من فولاذ ؟ صحيح أن أمّه ساعدته كثيراً بما كانت تنتجه من تعب يديها . إذ كانت تغسل وتخبز بالأجرة للأغنياء ، ولا تحجم عن القيام بأيّ عمل مهما يكن خسيساً وشاقّاً ، ما دام يأتيها بالقرش تنفقه على تعليم وحيدها . ولكنها أصبحت طريحة الفراش منذ عامين . وفؤاد مضطرّ أن يعولها ويعول نفسه

ويقوم بنفقات دراسته . وها هو قد بلغ سنته الأخيرة ، وبينه وبين الشهادة الجامعيّة شهر وبعض الشهر . وهو متفوّق في جميع دروسه . والكلّ من أساتذته ورفاقه يتنبأ له بمستقبل باهر . فمواهبه لا شكّ في غزارتها ، وأخلاقه مضرب المثل ، وعلى الأخصّ عزّة نفسه . فما عُرف عنه يوماً ، رغم ضيق ذات يده ، أنّه اقترض فلساً من إنسان أو طلب معونة مهما يكن نوعها ، من أيّ مخلوق .

لقد كانت ثريّا ، وقد عرفته منذ حداثته وعرفت الكثير عن ظروفه القاسية ، أشدّ رفاقه إعجاباً بذكائه ، وسموّ تفكيره ، ومناعة خُلقه ، ونقاوة رجولته . ولكم تحدّثت إليه في شتّى الأمور . فكان يدهشها بقوّة حجّته ، وجميل بيانه ، وعمق تفكيره . وهي تذكر في ما تذكر قوله لها مرّة إنّه يشكر الله لأنّه وُلد فقيراً لا غنيّاً . فالفقر ليس عاراً وإنما العار في الذلّ والاستكانة للفقر . والفقر دون الذلّ والاستكانة أعظم مدرسة في الأرض . أما الغنى فشرّ ما فيه غطرسته وبهرجته . والغنيّ المتغطرس يحفر قبره بظلفه ، وذلك بما يثيره في المحرومين من حسد وحقد وضغينة لا تلبث أن تتفجر قلاقل وثورات وحروباً .

وازدحمت الذكريات والصور في ذهن ثريا . فما استطاعت كيفما قلّبتها ، أن تستنتج من أيّ منها ، أو من مجموعها ،

أن الشاب الجالس بجانبها يمكن أن يكون يوماً من الأيّام لصّاً ، مهما قست عليه الظروف ، ومهما بلغت به الحاجة . ذلك هو المستحيل بعينه . وانتهت بأن أطلقت قهقهة عالية وضربت جليسها على كتفه وقالت :

— السلام يا سيّد اللصوص . بقي أن نعرف إذا كان ما اصطدته اليوم يؤهلك لهذا اللقب الرفيع . هات برهانك .

ولكنها ، ما إن فاهت بمداعبتها تلك حتّى ندمت عليها وتمنت لو تستطيع أن تستردّها . ففؤاد راح يرتجف كالورقة وينتفض انتفاضة العصفور الذبيح . وطالت رجفته وتسارعت أنفاسه حتّى خشيت عليه من عارض لا تحمد عقباه . فانعقل لسانها ، وتبللت عيناها ، وما بقيت تدري ماذا تقول أو ماذا تفعل .

مرّت دقائق والفتى والفتاة في صمت رهيب ، والقمر يتحجّب تارة بغمامة بيضاء وطوراً يسفر كأنّه والأرض يلهوان بلعبة كالّتي يلعبها الصغار إذ يختبىء الواحد فيفتّش عنه الآخر . وأخيراً مدّ فؤاد يده إلى جيبه وأخرج منها شيئاً ثمّ طرحه بسرعة في حضن ثريّا وكأنّه يطرح عقرباً أو ثعباناً ، وقال :

— إليك البرهان .

وتناولت ثريّا ذلك الشيء وتأمّلته في نور القمر ، فإذا به سوار من الذهب الخالص ، البديع الصنع ، وقد رُصّع

بالياقوت والألماس . وظلّت دقائق تتفحّصه وتقلّبه ذات اليمين وذات اليسار ، فكأنّها مبهورة بجماله ولمعـــانه . ولكنها ، في الواقع ، كانت تفعل ما تفعله وهي في شبه انخطاف . فلا فكرها ولا بصرها كانا مركّزين على السوار في يدها . وأخيراً لبسته على معصمها وبرمته برمتين ثمّ التفتت إلى فؤاد وقالت :

— شيء بديع . وبديع جدّاً . إن يكن هذا صيدك يا فؤاد وأنت ما تزال في أسفل سلّم اللصوصيّة ، فكيف بك إذا بلغت أعلاه ؟ هات أخبرنا من أين وكيف ؟

ما كادت ثريّا تلفظ الكلمة الأخيرة حتّى وثب فؤاد على قدميه ، وانتصب أمامها كالعمود ، ثمّ انحنى قليلاً وراح يقذف الكلام من فمه كأنّه هذيان المحموم ، ولكن بنبرات سريعة ، وبصوت خافت . فكأنّه كان يخشى أن تسمعه حتّى الياسمينة التي فوق رأسيهما :

— أنا رجل هالك يا ثريّا — هالك إلى الأبد . اتفلي في وجهي . العنيني . اصفعيني . اركليني . ولكن رجوتك أن تسمعيني . ولمن عساني أعترف إن لم يكن لك ؟ أنت ما أفسدك الغنى . ولقد أذلّني الفقر . أذلّني ساعة ظننتني أذللته . عليّ للجامعة رواتب استحقّ دفعها . وأمي ، كما تعلمين ، طريحة الفراش منذ عامين . وأنا لست أملك ثمن الدواء لها . ولا أجرة

الطبيب . ولا أجرة ممرّضة . أنا وحدي الدواء والطبيب والممرّضة . لقد تقرّحت المسكينة وراح الدود يأكلها وهي حيّة . وبتّ أشعر أن الدود الذي يرعى في لحمها يرعى في لحمي كذلك .

طار عقلي . أظلمت الدنيا في عينيّ . قلت أدوس كبريائي وعزّة نفسي في سبيل أمّي التي ما ضنّت بحياتها عليّ . فأقترض بعض المال . وقلت قريباً أحصل على شهادتي وعلى عمل يساعدني على وفاء الدين . وقلت أذهب إلى فريد صرصور . إنّه شاب طائش ، مبذّر ، ورث ثروة طائلة عن أبيه . وهو يعرفني وأعرفه ، ولي عليه بعض الفضل . إذ كان كثير الرسوب في امتحاناته أيّام دراسته . وكنت ألقّنه دروساً خاصّة . ولولاي لما نال شهادته . فريد صرصور — ألا تعرفينه يا ثريّا ؟

— أعرفه .

قالت ثريّا ذلك وهي تحاول أن تخفي رجفة في صوتها وفي عضلاتها . ثمّ أردفت بسؤال :

— وكيف كان استقباله لك ؟

— وجدته يلعب « البوكر » مع زمرة من رفاقه . فما ترك اللعب ليقابلني . بل أمرني بالانتظار — فرحت أنتظر — وعندما توقفوا قليلاً عن اللعب ليشربوا الوسكي ويأكلوا بعض الحلويات رأيته يخرج هذا السوار من جيبه ويديره على الحضور

ليتأمّلوا جماله . وسمعته يتبجّح بذوقه في انتقاء المجوهرات ، ويقول إن السوار هديّة لخطيبته ، وقد دفع ثمنه خمساً وعشرين ليرة ذهبيّة ، وهو مزمع أن يفاجىء خطيبته بـه اللّيلة – أي اللّيلة البـارحة – في الحفلة الراقصة في نـادي « سميراميس » .

عندها قاطعت ثريّا فؤاداً لتسأله في لجاجة :

– وماذا كان نصيبك منه في النهاية ؟ بماذا أجابك عندما طلبت منه المال ؟

– أجابني من بعد أن تنازل وسألني عن حاجتي ، ومن بعد أن وصفت له حالتي وحالة أمّي – أجابني بكلّ صفاقة : « وأيّ بأس لو أكل الدود لحم أمّك وهي حيّة ؟ ألعلّها أكثر من غسّالة ؟ » ولم يكتفِ بذلك حتى أضاف : « وأي حاجة بابن غسّالة إلى شهادة جامعيّة ؟ اذهب واعمل عملاً تعيش منه . ولا تطمح إلى العلو فوق أصلك . ذلك خير لك من الاستعطاء » .

– هكذا ، هكذا أجابك ؟ يا للوقاحة !

وانتفضت الفتاة ، وامتقع لونها ، وعضّت على شفتها السفلى ، وراحت تقلّب السوار في يدها على غير وعي منها . ولكن فؤاداً ما لاحظ شيئاً من ذلك ومضى في حديثه :

– خرجت من عنده وفي داخلي زلازل وبراكين . ولو

كان في استطاعتي أن أنسف الأرض والسماء بكلمة أو بنفخة لفعلت . وأيّ خير لي فيهما وقد حبستا عني كلّ خير ؟ أيّ خير في حياة صراصيرها نسور ، ونسورها جعلان ؟ ولكن أتموت أمي مفتحة العينين وفي عروقي دم ؟؟؟ لا . لن تموت . سآتيها بالطبيب ، وآتيها بالدواء ، وآتيها بالمال . لقد جازفتُ بعزّة نفسي فخسرتها . انحدرت إلى الحضيض ، فلأنحدر إلى ما دون الحضيض . وهكذا صار فؤاد لصّاً يا ثريا . وكان هذا السوار باكورة لصوصيّته .

وتوقّف فؤاد عن الكلام وهو يلهث إعياء . وما كان يجد الجرأة في نفسه ليمضي في الحديث ويخبر ثريا كيف تلثّم وتزيّا بزيّ بدوي ، وكيف كمَن لفريد صرصور ليلاً وهو في طريقه إلى النادي ، وكيف أوقف سيارته وشهر في وجهه مسدساً كالذي يلعب به الأولاد ؛ وكيف انتزع السوار من جيبه وأطلق ساقيه للريح . وطال سكوته . فشعرت ثريّا بارتباكه ولم تشأ أن يمضي في اعترافه إلى أبعد من ذلك فقالت في رقّة متناهية :

– يكفي . يكفي يا فؤاد . لقد فهمتُ كلّ شيء . ولا حاجة إلى التفصيل . والآن ما أنت فاعل بهذا السوار يا فؤاد ! أتريدني أن أشتريه منك ؟

– لا . لا . لا . أما كفى أن تلوّثت أنا حتى ألوّثك

أنت كذلك ؟ لا . لا . وألف لا . إني أقشعرّ من منظره . وأقشعرّ من لمسه . وأقشعرّ من ذكر كلّ حركة أتيتها في سبيل الحصول عليه . وجُلّ ما أرجوه منك يا ثريّا – إذا كان ذلك لا يزعجك – أن تردّي السوار لصاحبه ما دمت تعرفينه . ولك أن تخبريه بكلّ ما سمعته مني . لقد انزلق فؤاد من القمة إلى الهاوية . ولكنه لن يبقى في الهاوية . لتمت أمّ فؤاد . ليمت فؤاد . ولكن ليموتا شريفين . لا . لن يموت فؤاد لصّاً . وقد لا يموت إلاّ ثائراً على كلّ ما في الأرض من نتن وظلم وفساد . بل لن يموت إلاّ ثائراً . لقد عاهدت نفسي على ذلك . والصراصير لن تملك الأرض إلى الأبد . إن لي ولأمثالي نصيباً في سمنها وشهدها . ولن نتخلّى عنه للجشعاء والمتخمين .

– هوّن عليك يا فؤاد . ما من نزول إلاّ بعده صعود . ودعني أبوح لك بسرٍّ قد تنذهل له .

– هاتي يا ثريّا . سرّك عندي سرّ .

– أتعرف لمن هذا السوار ؟

– لمن ؟

– لي . ولكنني سأعيده الليلة إلى فريد صرصور .

– لكِ ؟ ! لكِ أنتِ يا ثريّا ؟ وكيف ذلك ؟

– أنا خطيبة فريد صرصور .

– أنتِ خطيبته ؟ ! واخجلي منكِ !

– الأصحّ أنّني كنت خطيبته إلى أن سمعت منك ما سمعت .

– ثريّا ! ليت الأرض تنشقّ وتبتلعني .

– بل ستبتلع الأرضُ الصراصير !

*

منذ أيام قرأت خبراً صغيراً في إحدى الجرائد المحليّة مفاده أن الشرطة ألقت القبض على فؤاد رمّاح وزوجه ثريّا لقيامهما بتوزيع نشرات سريّة من شأنها أن تخلّ بأمن الدولة ، وأن هذين الزوجين يُعَدّان في نظر المسؤولين من أشدّ العناصر « الهدّامة » خطراً على البلاد . . .

صديقي عبد الغفّار

ترتاد القرى اللبنانيّة بغية الارتزاق أفواج من الباعة المتجوّلين هم في الغالب من غير أهل البلاد ، وأكثرهم من ضواحي دمشق . وربّات البيوت القرويات يحسبن لهم حساباً ويخصّصن قسماً ليس باليسير من ميزانيات بيوتهنّ لابتياع شتّى الحاجات منهم . ولهنّ أساليب في المساومة مع أولئك الباعة أو « الدكاكين المتنقلة » هي غاية في الطرافة . فما إن يلقي البائع المكدود حقيبته الثقيلة عن ظهره ويفتحها ليعرض ما فيها حتّى تتناول أمّ كنعان — أو أمّ منصور — قميصاً أو منشفة أو قطعة من النسيج وتجسّها بأصابعها جسّ الخبير الواثق من خبرته . ثمّ تطرحها جانباً بازدراء ولا مبالاة كما لو كانت نفاوة تترفع عن أن تدخلها بيتها أو أن تفكّر في ابتياعهـا .

ويدرك البائع المحنّك أن تلك القطعة بعينها هي الّتي تفتش عنها أمّ كنعان . فيروح يمتدح من جودتها وكرامة نبعتها ، ويمضي في تشويقه إلى أن « تتنازل » أم كنعان فتسأله عن ثمنها . وهنا يفسح المجال واسعاً أمام البائع فيصوّب على خصمه

مدافعه الثقيلة مبتدئاً « بالله العظيم » ، ثمّ بالنبيّ ، ثمّ بسائر الأنبياء والأولياء ، ثمّ بشبابه وبعينيه وبأولاده إذا كان ذا أولاد . وقلّما ينسى الشمس والسماء ، و « الترّاب الطاهر » : « إن الثمن هو كيت وكيت . وهو رأس المال — الله وكيلك وليضربني الله بالعمى في عينيّ الاثنتين . »

ولكنّ أمّ كنعان لا تلبث أن تردّ هجمته بهجمة معاكسة . فجارتها قد ابتاعت مثل تلك القطعة بالتمام وبربع الثمن الذي يطلبه . وهي لا تريد له الخسارة . بل تريد أن تعامَل « بحقّ الله » — لا أكثر ولا أقلّ . ومن ثمّ فهي في غنى عن هذه القطعة . ولكنها ستبتاعها شفقةً عليه وتعويضاً له عن تعبه وعن الوقت الذي أضاعه في عرض بضاعته عليها .

وتدوم « المعركة » نصف ساعة — أو ساعة — بين كرّ وفرّ ثمّ تنتهي بأن تأخذ أمّ كنعان القميص أو المنشفة أو قطعة النسيج وتدفع للبائع نصف المبلغ الذي طلبه في البداية . فيأخذه راضياً شاكراً وداعياً لأمّ كنعان بقوله : « عوّض الله عليك . » ويطرح حقيبته على ظهره وينطلق يفتّش عن ساحة جديدة لمعركة جديدة منادياً بأعلى صوته « معنا قمصان ، كلسات ، كلسونات ، شراشف ، مناشف » ومنغماً كلماته تنغيماً يفتنّ فيه الباعة المتجوّلون كلّ على هواه . ولكم يحدث لي أن أكون جالساً إلى مكتبتي وقلمي في يدي أرود وإيّاه أصقاعاً

نائية من مجاهل الفكر والخيال فتطرق تلك الأنغام أذنيّ وتردّني وقلمي إلى حيث الحياة البشريّة تدبّ دبيبها المحموم ، المتعثّر اللاهث الأبدي في سبيل الرغيف والقميص والمأوى .

حدث لي مثل ذلك منذ ثلاثة أعوام ، وكان الصوت المنادي « كلسات ، كلسونات » إلخ رخيماً وعذباً إلى حدّ أن تمنّيت لو أنّه لا ينقطع . وما هي إلاّ دقائق حتّى قيل لي إن بائعاً متجوّلاً يطلب مقابلتي . فألقيت قلمي من يدي وخرجت إلى حيث كان البائع ، وأنا على شبه اليقين من أنّه ما طلبني إلاّ لفضّ مشكلة حسابيّة أو نحوها ، بينه وبين بعض أهل البيت ، وشدّ ما كانت دهشتي عندما ابتدرني الرجل بقوله :

« لا تؤاخذني يا أستاذ لقد قطعت عليك عملك . ولو دريتَ مقدار شوقي إليك لعذرتني . هذه فرصة ترصّدتها من زمان . وقد تمّ لي ما تمنّيت . فالحمد لله . . . » وتخضّبت وجنتاه بالدم . والتمعت عيناه السوداوان ، وكأنّه كان يريد أن يقول أكثر ممّا قاله بكثير فخانه جأشه ولسانه وأُرتج عليه .

مددت إليه يدي مصافحاً فأخذها بكلتا يديه وضغط عليها ضغطاً كاد يؤلمني ، وشفتاه تختلجان كأن بهما كلاماً . ولكنهما لا تنطقان . وقد فتّشت عن كلمة أقولها له توازي بحلاوتها ووزنها التأثر البادي على وجهه الأسمر المستدير فلم أجد غير

كلمات الترحيب المألوفة : « أهلاً وسهلاً . أهلاً وسهلاً يا أخي . تفضّل واجلس . » وأغلب الظنّ أن كلمة « يا أخي » كان لها في نفسه أكبر الفعل . فما إن سمعها حتّى انبسطت أساريره وانطلق لسانه فراح يكلمني بصوته العذب ، الهادىء المطمئن :

« ما خاب ظنّي فيك . ويكفيني أن تخاطبني بقولك يا أخي . إذن لست في حاجة إلى الاعتذار . »

« وعمّاذا تعتذر ؟ »

« عن مظهري — عن سراويلي الرثّة ، وحذائي المهشّم ، ويديّ المشققتين ، وعن تطفلي عليك . »

« ومتى كان الناس بسراويلهم وأحذيتهم ؟ ومتى كانت المحبّة تطفّلاً ؟ والذي يبدو لي من كلامك ومن رغبتك في مقابلتي أنّك تحبّني . وإلاّ فماذا ساقك إليّ ؟ »

« نعم . نعم . ساقتني محبّتي . قرأت لك أشياء . وبودي أن أقرأ كلّ ما كتبت وما سوف تكتب . أنا أتذوّق الأدب وإن أكن غير متعلّم . أقرأ العربيّة قراءة « سالكة » . وإن فاتني فهم بعض المفردات والتراكيب فلا يفوتني فهم مجمل المعاني . ولولا أنّ برقبتي عيالاً حاجاتهم لا تنفكّ تصرخ في أذنيّ لانقطعت إلى الدرس والتحصيل . ولكن الحاجة لا ترحم . لذلك أتنقّل في هذه الجبال وأنادي بأعلى صوتي «كلسات ،

كلسونات ، شراشف ، مناشف » . ولكنني أحمد الله في كلّ حال . إي . الحمد لله ربّ العالمين . »

وطال الحديث بنا على ذلك المنوال إلى أن عرضتُ على الرجل سيجارة . فرفع إليّ عينيه الوديعتين وقال : « شكراً يا أخي . أنا صائم إذا قبل الله صيامي . »

قلت : « صيامك مقبول إن شاء الله . والعيد أصبح قريباً . فأرجو لك ولعيالك أن تستقبلوه وأنتم في عافية وفي خير . »

« العيد؟ وهل لأمثالنا أعياد؟ الصوم للفقراء والأعياد للأغنياء. »

« أتعني أن الأغنياء لا يصومون ؟ »

« بل يصومون — أكثرهم يصوم . وبينهم من هم أتقياء . ولكنهم يصومون في النهار ليطلقوا الأعنّة لشهواتهم النهمة في الليل . فكأنّهم ما صاموا . أما نحن الذين نصوم عن الخبز والماء ونفطر على الخبز والماء فصومنا صوم وإفطارنا صوم كذلك . »

« ألعلّك تحسد الأغنياء من هذا القبيل ؟ »

« لا وربي الذي أمرني بأن أصوم هذا الشهر المبارك . فالصوم عندي متعة روحيّة لا تدانيها أية متعة جسديّة . والصوم في القلب قبل أن يكون في البطن . أما الذين بطونهم صائمة وقلوبهم في إفطار دائم من الكذب والحقد والبغض وسائر الشهوات الخسيسة فصومهم مكر وبهتان . والله لا يحبّ الماكرين. »

« أما ترى أن بين الفقراء كذلك من يصومون ببطونهم

دون قلوبهم ؟ »

« أجل . وأنا واحد منهم . فقد دنّست صومي في هذا النهار عدّة مرّات وأنا أبيع أشياء من عجوز كادت تخرجني عن ديني . دنسته بالكذب وبالغضب وبشهوة الدم . فقد تمنّيت لو كان لي أن أستلّ روح تلك العجوز من بين جنبيها . »

« ألهذا الحدّ أحرجتك العجوز ؟ »

« تبّاً لكارنا ما أمضّه كاراً . وتبّاً لزمان صدقه نقد زائف ومينه نقد شريف . وتبّاً للقمة نتبلّغ بها معجونة بالدم ومخبوزة بالرياء . كنت صادقاً في البداية مع العجوز فما صدقتني . وعندما كذبت عليها أشنع الكذب قالت : بارك الله فيك . الآن تكلّمت بالصواب . — ونقدتني الثمن باسمة شاكرة . ولولا حاجتي إلى دريهماتها لما قبلتها ولما أفسدت صومي من أجلها . ولكن الحاجة كما قلت لا ترحم . »

قلت وقد أثّر بي كلام الرجل واعترافه الصريح : « صدّق أن اعترافك هذا ليصلح ما أفسدت من صومك . ليت كلّ مَن صام عن مأكل ومشرب عرف مثلما تعرف أن صومه عذاب بغير ثواب ما لم يقترن بصوم القلب عن الموبقات وصوم الفكر عن الشرّ . أما العيد الذي تقول إنّه للأغنياء فلا هو للأغنياء ولا للفقراء. بل للذين صاموا بقلوبهم وأفكارهم قبل بطونهم وإن فرغت جيوبهم من المال وبيوتهم من لذيذ الطعام ومريء الشراب . »

كان الرجل يصغي إليّ ويداه تسوّيان الحبال حول حقيبته ، ولكن حركاته ما كانت حركات رجل فكره منصبّ على العمل الذي بين يديه . بل كان من الجليّ أن فكره كان بعيداً عن حقيبته وعن حبالها . وبعد تردّد خلته طويلاً أخذ الحبل بكلتا يديه ، وبلمحة الطرف رفع الحقيبة الثقيلة إلى ظهره قائلاً : « يا رزّاق » وأوثقها جيّداً إلى كتفيه ووقف هنيهة ينظر إليّ ولا يتكلّم ، وأخيراً قال :

« ما أطيب الراحة بعد التعب ، والنوم بعد النعاس ، والتمتّع بعد الحرمان ! ما أطيب الإفطار بعد الصوم ! ما أبهج العيد ! »

ـ وسكت وبقيت ساكتاً . ثمّ مدّ إليّ يده مودّعاً وقال :

« ولكن أعياد الناس يا أستاذ أصبحت اليوم أعياد عيون وأنوف وبطون لا أعياد قلوب وأفكارٍ وأرواح . ولو أن الناس عرفوا لأعيادهم معنى لجعلوها أيام عبادة وتأمّل وحرمان جديد ، لا أيام هرج ومرج ، وتمتّع بغير حدود . لئن حقّ للبطن الصائم عن الأكل والشرب أن يعيّد بالأكل والشرب فما يحقّ للقلب الصائم عن الموبقات والفكر الملجم عن الشرور أن يعيّدا برجوعهما إلى الموبقات والشرور ، فعيدهما لا يليق أن يكون بالاستمتاع بل بصوم جديد وحرمان أشدّ من ذي قبل . ألا توافقني في ذلك ؟ » قلت : « بارك الله فيك . لأنت مِن خير مَن صام ومِن أحقّهم بالعيد . »

أصفر الناب

ليست المقابر بالأماكن التي يرتادها الناس للترويح عن النفس والجسد . وإنّه لشذوذ في طباعي من غير شكّ أن أنفر إلى أقرب مقبرة كلّما ضاق بي منزلي أو ضاق صدري بثرثرة الناس والكتب .

والأغرب من ذلك أن الربيع لا يتجلّى لي بكلّ روعته ومعانيه إلاّ إذا استقبلته بين القبور ، وعلى الأخصّ ما انتثر منها بين الصنوبر والشربين حول المعابد القرويّة المنعزلة عن المساكن . ففي تلك القبور الوديعة التي لا تكاد تتميّز بشيء عن الأرض حواليها ، وفي وشوشة الأشجار من فوقها ، ودبيب الأعشاب على ترابها ، ثمّ في سكونها الحالم الأبدي ، ما ينفض عن القلب أثقاله ، وينزع عن الفكر أغلاله ، ويحمل الخيال بعيداً على أجنحة من النور والأثير .

وجرياً على عادتي في كلّ عام انطلقت في مستهلّ ربيع هذا العام إلى المقبرة التي أحببتها فوق جميع المقابر لخلوّها من كلّ بهرجة إلاّ الصنوبر والشربين ، ثمّ لبعدها عن مسالك الناس . وقد اخترت لذلك نهاراً سماؤه سخيّة بالدفء والنور ، وأرضه

حافلة بالفتنة والبهجة ، وهواؤه معطر بأنفاس الأعشاب والأزهار . ولشدّ ما دهشت إذ وجدت في المقبرة شخصين غريبين ما سبق لي أن رأيتهما من قبل في ذلك المكان أو في أيّ مكان سواه . أحدهما شيخ طاعن في السنّ ، والآخر غلام ما تجاوز الخامسة عشرة من عمره . فما إن أبصرني الغلام حتّى سمعته يقول للشيخ : « هذا هو . »

عندئذ نهض الشيخ الجالس على الأرض ، ومشى نحوي وإحدى يديه على عصاه والأخرى في يد الغلام . وكان قصير القامة ، هزيل الجسم ، كثّ اللحية ، يعتمر قاووقاً من اللبد مخروطي الشكل وقد برزت من تحته خصل من الشعر الأشعث . أما سراويله الرثة ، ونعلاه الباليتان ، وحركاته وسكناته فكانت تنمّ عن فقر مدقع وشيخوخة بالغة . في حين أن الغلام بجانبه كان حاسر الشعر ، وسيم المحيّا ، ثابت القدم ، حسن الهندام ، بديع التكوين من أمّ رأسه حتّى أخمصيه . فلم يخامرني أقلّ ريب في أن الشيخ فقير يستعطي وقد اتخذ من الغلام عوناً ودليلاً . وانعصر قلبي شفقة عليه عندما أصبح على قيد باع مني ، فأبصرت البياض يغشى السواد في عينيه المفتوحتين . إنّه لكفيف . وأنا لا أحمل نقوداً . فواخجلي من شيخوخته ومن فقره وعماه !

لم يفسح الشيخ لي مجالاً للتفكير ، بل مدّ إليّ يده باسطاً

كفّه . فقلت بلسان متلجلج :

« عفوك يا عمّاه . فأنا لا أحمل نقوداً . تعالَ إلى بيتي بعد ساعة وأنا . . . »

فرفع الشيخ رأسه عالياً ، وحملق في وجهي بعينيه البيضاوين ، وقال برزانة فائقة :

« بعد ساعة لا ينفعك أخذي ولا يجديني عطاؤك . »

قلت وقد أوقعني كلامه ولهجته ومنظره في ارتباك :

« إذن هلمّ معي إلى البيت . أو فانتظرني ريثما أذهب وأعود . »

« بل البث ههنا فليس عندك ما تعطيني . وعندي ما أعطيك ، وقد جئتك بعطيتين من مكان بعيد . »

« اعذرني . ألست شحّاً . . . ألست فقيراً ؟ »

« قلها . قلها ولا تخجل ـ شحاذ . شحاـ ذ . شحاـ حاـ ذ ! لقد سمعتها آلاف المرّات من آلاف الأفواه . سمعتها بيديّ ورجليّ . سمعتها من الصغار والكبار . من الكلاب والسنانير . من الفَراش والعصافير . من التراب والأعشاب . من الشمس والقمر . سمعتها في كلّ لقمة مضغتها وجرعة جرعتها . أجل . سمعتها تسعين عاماً بلياليها الطوال والقصار ، ونهاراتها المحمومة والمقرورة حتى غدوت لا أسمع غيرها . قلها ، قلها . فإنّه ليطيب لي أن أسمعها للمرّة الأخيرة ومن فم رجل

أُخبرتُ أنّه يُجلّ الإنسان حتّى في الشحاذ . فكاد يكذّب الخبر الخبر . »

كاد الشيخ يسحقني لا بما قاله بل بالحرقة التي تسرّبت إليّ في صوته وبالتقريع اللطيف الذي تبطّن عنه كلامه . وشئت أن أعتذر . ولكنني ما وجدت الكلمة التي تليق بتلك الحرقة وذلك التقريع . فغيرت مجرى الحديث :

« قلتَ إنّك جئتني من مكان بعيد ، وأنت لا تعرفني . . »

« لا أعرفك ويعرفك هذا الصبيّ . »

« ومن دلّك عليّ ؟ »

« هذا الصبيّ . »

« ومن أنبأك بأنّني آتٍ إلى هذه المقبرة حتّى سبقتني إليها ؟ »

« هذا الصبيّ . »

« ومن أين لهذا الصبيّ علم كلّ ذلك ؟ ألعلّه ملاك ؟ »

لم يجبني الشيخ في الحال ، بل أطرق وطال إطراقه . فحوّلت اهتمامي إلى الغلام الذي ما رأت عيني وجهاً مشرقاً بالنور والطهر والجمال كوجهه . وشئت أن أسمع صوته فسألته :

« ما اسمك أيها الصغير ؟ »

فما ردّ عليّ وردّ الشيخ :

« إن هذا الصغير لأكبر مني ومنك . وهو لا يتكلّم إلاّ إذا أُلهم الكلام . » وبعد دقيقة من الصمت ، أردف : « اسمع !

أتؤمن بالله ؟ »

قلت : « أؤمن . »

فعاد إلى الإطراق والصمت. وطال صمته حتى أخذ يساورني شعور بأن به مسّاً ، وأنّه من الخير لي أن أنصرف عنه بلباقة . ولكن أشياء في صوته ووجهه وفي وجه الصبيّ كانت تبعث في نفسي عكس ذلك الشعور . وبغتة رفع الشيخ يمناه إلى رأسه فانتزع القاووق عنه ورمى به إلى الأرض وقال :

« لتشهد الشمس عليّ . أما سمعت بأصفر الناب ؟ »

فأجبت أنّني سمعت في صغري بشحاذ كان يتردّد على القرية من حين إلى حين ، وكان معروفاً لدى الكلّ بلقب « أصفر الناب » ولكنه مات من زمان . فقال كمن سُرّي عنه :

« لا . ما مات أصفر الناب . وسيموت بعد ساعة . أنا هو أصفر الناب . وقد جئت لأفرغ في يديك كنوز ساعتي الأخيرة . »

عندها أيقنت أن الشيخ إما مجنون أو أنّه يهرف هرف الخرف . فقلت محاولاً جهدي أن أخفي ما في صوتي من تهكم :

« أخشى أيّها الشيخ الجليل ألاّ تتسع يداي لكنوز ساعتك الأخيرة . »

فأجابني بمثل هدوئه السابق وبالنبرة عينها ، ومن غير أن يتبدّل شيء في وقفته أو في أسارير وجهه :

« تضيق اليد وأما القلب فلا يضيق . خذ مني بقلبك لا بيديك . »

قال ذلك وأغمض عينيه وسكت هنيهة ، ثمّ عاد فاستأنف الكلام :

« اسمع ! واسمع بقلبك لا بأذنيك . أنا أصفر الناب . وأنا اليوم في التاسعة والتسعين من عمري . صرفت التسع الأولى منها مبصراً في بيت والدي الضرير ، والتسعين الأخيرة ضريراً يقرع الطرق بعصاه ، والأبواب بكفّه ، والآذان بلسانه : « من مال الله . » فما بريت عصاي ، ولا بريت كفي ، ولا بري لساني . ولكن نفسي تهشمت وتمزّقت ثمّ تملّصت مني فكأنّني ممسحة على عـَتَبة أو لـَعين في بستان . فلكم سمعت الأمـّهات يروّعن بي صغارهنّ قائلات : « جاءك أصفر الناب. » ولكـَم شـُتمتُ ورُجمت وطاردتني الكلاب . حتّى الكلاب تكره الشحاذين . أما الآن فأصفر الناب ليس بالشحاذ . »

وتوقف الشيخ عن الكلام ، ثم انحنى يتلمس الأرض مفتشاً عن قاووقه . وإذ وجده وضعه على رأسه وانتفض قائلاً :

« شحاذ . . شحاذ . . الآن أنت الشحاذ . الآن كل من على الأرض شحاذ — إلاّ أصفر الناب — فهو وحده يـُجدي ولا

يستجدي . هو وحده لا يطلب شيئاً من الأرض ولا من السماء . هو وحده يدين ولا يستدين . إن لي في ذمة الأحياء والأموات ديوناً لا تحصى ولا تُعَدّ . ففي هذه المقبرة وكلّ مقبرة عظام أنكرت حقّي عليّ . وحقّي أزهار من اللطف ما شممتها ، وثمار من المحبّة ما جنيتها ، وساعات من الأنس ما عرفتها ، وكلمات من نوع « يا أخي » و « يا صديقي » و « يا روحي » ما سمعتها . وحقّي أن أستوفي من الناس – أحيائهم وأمواتهم – أجراً عن الأثقال التي حملونيها طيلة تسعين عاماً . وهل أثقل من قولهم « شحاذ » ؟ وهل في جيوب الناس ما يكفي أجراً لمن تحمّل ثقل تلك الكلمة تسعين عاماً ، وتحمّله بعينين لا نور فيهما ؟ »

أخذت أتهيب الشيخ وأشعر بشيء من القلق الغريب في حضرته ، بعد أن سمعت منه ما سمعت . وكنت أريد أن أتهرّب منه لولا شوقي إلى الوقوف على سرّه . فسألته عمّا عناه بقوله إنّه الآن وحده يُجدي ولا يستجدي . فجاءني جوابه :

« منذ هذا الصباح طرحت كلّ أثقالي عني إذ انقطعت عن التسوّل . وبانقطاعي سامحت الناس بكلّ ما لي في أعناقهم من ديون مثلما سامحت كلّ ما على الأرض وفي السماء . فأنا الآن خفيف وطليق كالنسيم . ولأوّل مرّة في حياتي أُحسّني إنساناً لا شحاذاً . وذلك الإحساس وحده يكفّر عن كلّ ما لقيته في

حياتي من شظف وصلف وإهانة . أتريد أن تعرف كيف تمّ لي ذلك ؟ »

قلت : « من غير شكّ . » فسألني للمرّة الثانية إذا كنت أؤمن بالله . وإذ أجبته بالإيجاب تنحنح وقال :

« حيّ هو الله . وعظيم هو الله . وكريم هو الله . لقد كنت طيلة التسعين عاماً التي صرفتها في الشحاذة أطلب إلى الله أن يريحني من الكشكول واستجداء الأكف . وكدت أكفر برحمة الله من بعد أن بلغت من الشيخوخة ما بلغت . وإذا بعزرائيل يأتيني صباح اليوم في زيّ هذا الصبيّ ويعلنني أنّني مائت عند الظهر . ثمّ يأخذ بيدي ويقودني إلى هذه المقبرة . فأنقاد إليه انقياد الطفل لأمّه . ويشقّ عليّ في بادىء الأمر أن أموت . ولكنني أعود فأقول في نفسي : « إنّه أوّل صباح أنهض فيه من نومي فلا أفكّر بكشكولي ، ولا أرسم خطّة لنهاري أين أذهب فيه ، وممّن أستجدي ، وبماذا أردّ عني أنياب الكلاب وألسنة الناس . وتتسع الفكرة وتمتدّ . فلا أكاد أصدّق أني أنا أصفر الناب ، وأنّني في الساعات المتبقية لي على الأرض لن أكون شحاذاً ، ولن أحمل ثقلاً ، ولن أهتمّ بماذا آكل وأشرب وألبس وأين أنام . وتسكرني هذه الحرية تأتيني على حين غرّة ولو لساعات معدودات . فلا أطلب أكثر من أن أبوح بنشوتي لإنسان من الناس ليعرف الناس أن أصفر الناب

ليس شحاذاً بعد . ويفهم الصبيّ ما يجول بخاطري فيأتي بي إليك لتعلن الملأ بلساني : « حيّ هو الله . وعظيم هو الله . وكريم هو الله . وإنسان هو أصفر الناب . وكم الساعة الآن ؟ »

قلت : « الحادية عشرة . »

قال : « لقد آن لنا أن نعود . وإني لأرجو لك أن تسكر سكرتي فترتاح من كشكولك ، وتبسط كفّك لا مستجدياً بل مجدياً . فليس أشقّ على الإنسان من منّة الإنسان . وأيّ الناس لا يحمل كشكولاً ولا يشقى بمنّة الناس ؟ »

وشدّ الشيخ يد الصبيّ التي في يده ، وانطلق الاثنان إلى حيث لا أدري وبدون أن يودّعاني بكلمة . ومن بعد أن غابا عني رحت أبكّت نفسي لأنّني ما استفسرت الشيخ بعض الأمور المبهمة في حكايته . وأمعنت في التبكيت . فوسوست لي نفسي — تشفياً وانتقاماً — أن الشيخ والغلام ما كانا غير خيالين أنبتتهما لي يد الربيع الساحرة من الرمس الذي كنت جالساً عليه .

قلامة ظفر

كلفني أحد جيراني القرويين ابتياع حاجة له في المدينة . وأنذرني أنها ، على تفاهتها ، نادرة الوجود ، وليس في المدينة كلّها غير رجل واحد قد استقلّ بصنعها . وهو لا يصنعها إلاّ عند الطلب . وأعطاني اسمه واسم الشارع الذي فيه حانوته .

اهتديت إلى الشارع بعد تفتيش ممضّ فإذا به ممرّ ضيّق مظلم بين شارعين واسعين ، وإذا الحانوت الذي أفتش عنه يكاد يكون ثقباً في جدار . فما أظنّ أن طوله يتجاوز الأربعة من الأذرع وعرضه الاثنين . إلاّ أنّه ، على ضيقه ، كان يزدحم بشتّى الخردوات من أقفال ومفاتيح وأمراس وأزرار وغيرها بحيث يتعذّر على الداخل أن لا يمسّها بأطراف ثيابه فيمسح بعضاً من الغبار الراقد عليها .

دخلت الحانوت ، فلاح لي في مؤخره رجل متوسط العمر جالس إلى مائدة صغيرة وفي إحدى يديه مقصّ وفي الأخرى قطعة من النسيج ، وأمامه خشبة صغيرة فيها ثقوب متفاوتة الحجم وقد انحنى فوقها وراح يقيس النسيج عليها . حييته فرد عليّ التحيّة من غير أن يرفع بصره إليّ . وعندما ذكرت له

حاجتي أجابني ببرودة متناهية، وهو مُكبّ على ما بين يديه :

ـ هل وقتك من ذهب ؟

فقلت متكلّفاً برودة كبرودته :

ـ ولا من تنك .

ـ إذن عد إليّ بعد ساعتين .

عدت بعد ساعتين ونصف الساعة وإذا الرجل جالس حيث كان ، يعالج بالمقص قطعة النسيج والخشبة . وإذ سألته عن الحاجة التي ساقتني إليه ، أجابني ببرودته السابقة :

ـ عد بعد ساعتين .

ما شئت ـ وأنا المحتاج إليه لا هو إليّ ـ أن أؤنبه على استخفافه بي . وقد ندمت على قولي له مازحاً إن وقتي أرخص عليّ من التنك . إلاّ أنّني ما أخفيت عنه امتعاضي . فما التفت إليّ ، ولا اعتذر . بل كرّر ما قاله منذ هنيهة : « عد بعد ساعتين . »

وانقضت الساعتان . فعدت إلى الرجل وقد صممت ألاّ أخرج من عنده إلاّ والحاجة في يدي . أما إذا اتّفق وخذلني للمرّة الثالثة ، فقد أعددت للأمر عدّته . وعدّتي كانت خطبة بليغة صنفتها وأنا في الطريق إلى الحانوت . وحشوتها الكثير من ديناميت التقريع والتبكيت . إلاّ أنّني ما احتواني ذلك الوكر الضيق حتى بادرني الرجل بقوله :

– أما عندك من حاجة تقضيها غير هذه الحاجة ؟

قلت : « بل عندي حاجات وحاجات . ولكن هذه الحاجة هي أولها وأهمها الآن . لأنها ليست لي بل لجار من جيراني . وأنا حريص ألاّ أعود إلى بيتي بدونها . »

– ما دامت لها هذه القيمة عندك فعد إليّ بعد ساعتين تجدها في انتظارك .

تعوّذت بالشيطان ورحت أفتش عن الديناميت الذي أعددته لمثل تلك الدقيقة الحرجة ، فما وقعت له على أثر . لقد خانتني ذاكرتي وخانني لساني . ولم أجد ما أقوله للرجل غير : « أرجو منك ألاّ تخيبني هذه المرّة . فأنا من قرية بعيدة طريقها وعر وكثير المخاطر . ولا بدّ لي من العودة قبل غروب الشمس . »

وعندما رجعت بعد ساعتين وجدت الرجل جالساً مكانه وقد انصرف إلى تقليم أظافره بالمقصّ الذي كان في يده . أما قطعة النسيج والخشبة فقد اختفتا من أمامه وحلّت محلهما صحيفة عربيّة مبسوطة بطولها وعرضها ، وعلى جانب منها علبة من الكرتون الأسمر . وعلى غير ما عوّدني من قبل ، هشّ الرجل بي وأشار إلى كرسيّ مقابل لكرسيّه، وبمنتهى اللطف قال لي :

– تفضل . استرح . سأقضي لك حاجتك إن شاء الله حالما أفرغ من تقليم أظافري . ألا تريد أن تقلّم أظافرك ؟ هاك مقصّاً .

ولأوّل مرّة رفع إليّ عينيه الصغيرتين المستديرتين ، فلمحت فيهما بريقاً يتحيّر بين بريق الابتسامة وبريق الحدقة وقد بللتها دمعة . ولكن الرجل ما كان يبكي . وتفشت تلك الابتسامة الغريبة في أسارير وجهه النحيل المستطيل ، فبدا غريباً عن كلّ ما ألفته في حياتي من وجوه البشر .

ما بقيت أدري بعد ما سمعت من الرجل وما رأيت في أيّ ميزان أزنه وبأيّ لسان أخاطبه . والغيظ الذي كانت مماطلته لي قد أثارته في داخلي ، أخذ يتحوّل إلى ما يشبه الشماتة بنفسي والإعجاب به . فقد كان يفعل ما يفعل ويقول ما يقول غير آبه بسخطي أو رضاي ، وغير مشكّك في أنّه يقول ويفعل الصواب بعينه . لذلك ما اهتديت إلى جواب أحسن من قولي :

ـ شكراً يا صاحبي . أظافري ليست في حاجة إلى التقليم . ولكنني في أمسّ الحاجة إلى الانصراف . فيا ليتك تصرفني ثمّ تعود إلى أظافرك .

ـ بل يا ليتك تقلّم أظافرك ثمّ تنصرف .

ـ ولكن أظافري مقلّمة .

ـ قد تكون الأظافر التي على أصابعك مقلّمة . أما أظافرك الأخرى فيبدو لي أنّك لا تعيرها ما هي جديرة به من اهتمامك .

ـ وأيّ أظافر تعني ؟

ـ أعني الأظافر التي في العين والفكر والقلب .

سكتَ على مضض لعلّه يكفّ عن الحديث فينتهي من أظافره وينهي لي حاجتي . ولكنه ما سكت هنيهة إلاّ ليعود إلى الكلام :

ـ الذئب لا يقلّم أظافره لأنّها سلاحه في الدفاع عن نفسه وفي تمزيق فريسته . ويقلّم الإنسان أظافره لأنّها تزعجه ، ولأن له سلاحاً غيرها يستعين به في الدفاع عن نفسه وفي تحصيل قوته . والذئب لا يخجل بشراسته . وإذا جاع فتك حتى بأخيه أو أبيه . وهو في الحالين غير ملام . أما الإنسان فيخجل بشراسته ويتحاشى الفتك بأخيه أو أبيه . وإن هو تشارس مع أخيه أو فتك به ، لامه الناس إذا هو لم يلم نفسه . ومعنى ذلك أن الشراسة والشراهة وحبّ الفتك وما يرافقها من بغض وجشع وغضب وانتقام وسواها ، هي كلّها أظافر تليق بالوحش ولا تليق بالإنسان . فلا بدّ من تقليمها لمن شاء أن يكون إنساناً وأن يعيش مع الناس في سلام . ألا توافقني في ذلك ؟

كان الرجل يكلّمني وعيناه على أظافره وعلى المقص في يده. وكان كلّما وقعت قلامة على الصحيفة أمامه ، التقطها بتأنّ ووضعها على مهل في علبة الكرتون بجانبه . وكنت أرقبُ كلّ حركة من حركاته وأصغي إلى كلّ كلمة من كلماته ، فما أكاد

أصدق عيني وأذني . لقد أدهشني أن أسمع مثل ذلك الكلام من مثل ذلك الرجل في مثل ذلك الحانوت . إلاّ أنّني ، والحاجة التي جئت من أجلها ما برحت تساور أفكاري ، التفتّ إلى ساعتي فإذا النهار يلفظ أنفاسه . فانتفضت كالملسوع وهممت بالنهوض . فما كان منه إلاّ أن ألحّ عليّ بالانتظار قليلاً بعد ، وأردف قائلاً :

ـ واللجاجة ظفر لا بدّ من تقليمه . صدقني يا صاحبي أن ليس في الأرض ما يستحقّ أن نلجّ في طلبه . فالعالم كلّه لا يساوي قلامة ظفر . وقد تساوي قلامة ظفر كلّ العالم .

فأجبته بلهجة القانط :

ـ ولكن الحاجة التي كلفتك صنعها هي الآن عندي أثمن ما في العالم . أفلا تلطفت وأنجزتها بأسرع ما تستطيع ؟

ـ هاكها يا صاحبي . لقد أنجزتها بعد دقيقتين من مجيئك في الصباح . ولكنني شئت أن أمتحن معدنك .

وناولني الحاجة متمّمة على أكمل وجه . حينئذ ما ملكت طبعي ورحت أمطره وابلاً من التقريع لأنّه استخفّ بي واسترخص وقتي إلى ذلك الحدّ . ولكن الابتسامة ما فارقت وجهه فكأنّه ما سمع تقريعي ولا اهتمّ لغيظي .

ـ امتحنتك فما اجتزت الامتحان .

ـ وما شأنك مني لتمتحنني ؟ إن أنا غير عابر سبيل في حياتك.

ــ حسبي أن التقيتك مرّة لأعرف أني التقيتك مرّات من قبل وسألتقيك دهوراً بعد . فسبيلنا واحد . والرفيق مطالَب برفيقه .

ــ وهل تمتحن كلّ زبائنك ؟

ــ ما كلّ زبون إنسان ، ولا كلّ إنسان جدير بالامتحان .

ــ أفما كان الأحرى بك أن تخرج من هذا الوكر الضيق إلى العالم الأوسع ، وتعلّم الناس فنّ تقليم الأظافر المنظورة وغير المنظورة ؟

ــ بلى . لو أنّني أتقنت فنّ التقليم. ولكنني ما أزال أتعلّم. وكيف لمن لم يتعلّم أن يعلّم ؟

ــ أراك تحرص كلّ الحرص على قلامات أظافرك ، فتجمعها على مهل وتضعها في العلبة بجانبك . أهي مغالاة منك في النظافة ، أم أن لك في تلك القلامات شؤوناً أخرى ؟

طرحت سؤالي بغير اكتراث . ولكن تأثيره في الرجل كان فوق ما كنت أتوقّع . فقد رفع إليّ بصره وسمّره في وجهي ثمّ تنحنح كما يتنحنح المغني قبل الإنشاد والخطيب قبل الخطابة ، وقال وهو يقطّع الكلام تقطيعاً :

ــ إن تقليم الأظافر عندي هو ضرب من العبادة . فأنا ما قلّمت أظافري الظاهرة إلاّ قلّمت معها أظافري الخفيّة . وأظافري الخفيّة هي خطاياي . فكلّ قلامة من أظافري هي

شاهد على خطيئة مني ارتكبتها . والخطايا تنمو كما تنمو الأظافر سواء بسواء . وأنا حريص ألاّ تضيع قلامة واحدة من قلاماتي . وقد أوصيت أن تُدفن معي لأمثل يوم الحشر أمام الديّان وخطاياي شاهدات عليّ . ونصيحتي إليك — خذها مجّاناً ولوجه الله — أن تفعل ما أفعل .

عندها بدأ يخامرني شكّ في سلامة عقل الجالس تجاهي فقلت :

— إنّها لنصيحة غالية من غير شكّ . وسأعمل بها من الآن فصاعداً . ألا أخبرتني من الذي تلطّف بها عليك قبل أن تجود بها عليّ ؟ أم أنّها خطّة ابتدعتها بنفسك لنفسك ؟

— بل سبقني إليها والدي رحمة الله على ثراه . وأنا ورثتها عنه . وقد بلغ به الحرص عليها أن مات على المشنقة في سبيل قلامة ظفر من أظافره . أما قلت لك إن قلامة ظفر قد تساوي كلّ ما في العالم ؟

قلت وكادت الدهشة تعقد لساني :

— قلامة ظفر تؤدي إلى المشنقة ؟ أكاد لا أصدق .

— بل صدّق . ففي العالم ما هو أعجب من ذلك . كان والدي نجاراً بارعاً وإنساناً تقيّاً . وكان يجمع قلامات أظافره مثلما أجمع قلامات أظافري . ودرى بذلك الجيران . فجاءه يوماً إلى دكانه زمرة من الأولاد الأشقياء ووجدوه منهمكاً في

تقليم أظافره . وطارت قلامة ووقعت على الأرض . فالتقطها ولد من الأولاد وأطلق ساقيه للريح . فما كان من والدي إلاّ أن اختطف قدوماً كان بجانبه ولحق بالولد وهو يصيح : « هات القلامة وإلاّ رميتك بالقدوم . » فما وقف الولد . ورماه والدي بالقدوم فأرداه . فما صدق القضاة ، ولا صدق أحد أن رجلاً تقيّاً يقتل ولداً من أجل قلامة ظفر . أما حبل المشنقة فصدق ، وعانق والدي عناق الصديق للصديق .

وتوقف الرجل عن الكلام عند نهاية قصة والده المحزنة . فاهتبلتها سانحة نادرة للانصراف ونهضت لأشكر له صنيعه ومواعظه وألقيت قطعة من النقد على المائدة أمه . ووضعت يدي في يده مودّعاً . فضغطها ضغطاً آلمني حتى كدت أصرخ . وحملق بي طويلاً ثمّ سألني بلغة إنكليزية لا غبار عليها :

— هل أنت قويّ ؟

قلت وقد حيرني سؤاله على قدر ما حيرني وجود جواب مناسب :

— أنا كما تراني . جسم ناحل ، لو توكّأت عليه لانهدم .

وما إن سمع جوابي حتى هزّني هزّة عنيفة وصاح :

— لست أعني قوّة الصُّلب والساعد . تلك للدببة وللثيران . أعني قوّة السلطان على النفس . هل أنت سلطان نفسك ؟ وإن أنت لم تكن سلطان نفسك ، أفترض أن تسلطن عليك حاجة

زهيدة كالّتي جئتني من أجلها اليوم ؟ قوّة السلطان على النفس — تلك هي القوّة ! وكلّ ما عداها أظافر للتقليم .

وضرب المائدة بجمع كفّه ضربة رقص لها كلّ ما على المائدة ، ومنه علبة الكرتون الّتي بلغ بها الترنّح أن ارتمت إلى الأرض وبعثرت كلّ ما فيها من قلامات الأظافر . فاكفهرّ وجه الرجل ، وجحظت عيناه واعترته رعدة . ثمّ ارتمى على الأرض وراح يفتش عن القلامات بيديه ورجليه ويجمعها واحدة واحدة . فتسللتُ إلى الشارع وصوته المتهدّج يقرع أذني :

« ويلي . . ويلي ! خطيئتي كبيرة . . خطيئتي كبيرة . . »

جنديّان

خرج عباس من بيته قُبَيل الفجر . فما درى كيف خرج ولا كيف بلغ نهاية الغابة الكثيفة التي تفصل ما بين بيته وبين الطريق العام . لقد كان يمشي ذاهلاً عن كلّ ما حواليه وشاعراً كما لو كانت الأرض تهرب من تحت قدميه ، والأشجار تتهاوى عليه ، والسماء تهبط رويداً رويداً من فوقه فتكاد تسحقه سحقاً . ذلك لأنّه تلقّى في المساء أمراً من وزارة الحربية بأن يمثل في الساعة السابعة صباحاً لدى أقرب دائرة إليه من دوائر التجنيد ليجري تصنيفه في الجيش . لقد كانت الجبهة في حاجة إلى الرجال ، والمدفع ما يزال يطلب المزيد من اللحم البشري .

وأقرب دائرة للتجنيد كانت تبعد عن بيت عباس مسافة ثمانية أميال . وكان عليه أن يقطع تلك المسافة على قدميه ، لأنّه كان يعيش في بريّة منعزلة عن العمران . ولم يكن لديه من وسائل النقل غير حماره . وهذا لو شاء أن يركبه إلى الدائرة لما وجد من يردّه إلى البيت .

وقع الأمر على عباس ووالدته وقوع الصاعقة . وقد تمنّت

الوالدة من أعماق قلبها لو أن الله قبضها إليه قبل أن يجربها من جديد مثل تلك التجربة القاسية . فهي ما نسيت بعد ، يوم جاءها الساعي منذ ستة أعوام ببرقية من وزارة الحربية تنعى إليها زوجها الذي قضى في « ساحة الشرف » دفاعاً عن الوطن وعن « الحق والحرّيّة » تاركاً لها أطفالاً ثلاثة – صبيين وابنة – وأملاكاً زهيدة تنحصر في كرم من العنب وبستان من التفاح والزيتون وبيت صغير تداعت جدرانه ، ورثّ سقفه حتى بات يخشى عليه من الريح إذا هي هبّت عاصفة عنيدة .

ولكن الله كان مع الأرملة ، فتمكّنت بالكثير من الجهد المضنك ، والحرمان القاسي ، والسهر المستمر أن تدفع الجوع عنها وعن صغارها ، وأن لا تقع وإياهم في فخاخ المرابين . فقد كان من حسن طالعها أن بكرها عباس شبّ على أخلاق والده الرضية وعلى ولعه الفطري بالأرض ، وطموحه إلى النهوض أعلى فأعلى . فما انقضت ستّ سنوات على وفاة والده حتى زاد في غلّة الأرض بضعة أضعاف ، ورمم البيت ووسّعه ، واقتنى بقرتين ، وأرسل أخاه وأخته إلى المدرسة ، وراح يفكّر في الزواج لعلّ زوجه تحمل قسطاً من متاعب والدته . وفي الواقع خطب عباس ابنة فلاّح من الفلاّحين الأثرياء في الجوار ولمّا يتجاوز التاسعة عشرة . وكان منهمكاً في إعداد العُدّة للعرس حين جاءه الأمر بالالتحاق بالجيش .

يا لها من ليلة مرّة أمضاها عباس ووالدته من غير أن يغمض لهما جفن . فقد بات كلّ ما بنياه بالكدّ والتقتير مهدّداً بالانهيار والتلاشي . ومَن يدري أيعود عباس من الحرب أم لا يعود ! وإذا عاد أيعود رجلاً كاملاً أم نصف رجل أم حطاماً من رجل ؟

*

بدت طلائع الفجر في الأفق ، وسرت رعشة في الغابة المخضّبة بألوان الخريف ، وتململت العصافير على أفنانها عندما أدرك عباس آخر الغابة . فوقف ليرسل التفاتة في اتجاه البيت الذي غاب عن ناظريه . وقد حزّ في نفسه كثيراً أنّه لم يقبّل أخته الصغيرة قبلة الوداع ، وفاته أن ينبّه أمّه إلى أن بقرتهم السمراء توشك أن تضع مولودها الأوّل . فلا بدّ من السهر عليها في الليل ومن مراقبتها عن كثب في النهار . فتنهّد عميقاً ثمّ هتف عالياً : « ربي وإلهي ! » وانهمرت الدموع من عينيه قسر إرادته فما استطاع وقفها .

ولشدّ ما ذُعر عباس عندما سمع هتافه عائداً إليه من خلفه . فالتفت وإذا برجل منطرح تحت شجرة يحاول النهوض فلا يتمكّن منه بسهولة . ثمّ سمع الرجل يخاطبه من غير أن ينظر إليه . فكأنّه كان يخاطب نفسه :

« لقد أرسلك الله لتقيل عثرة عاثر . أعطني يدك يا بني .

ربي وإلهي ! »

تقدّم عباس من الرجل ومدّ يده المرتجفة إليه . فتناولها وشد عليها قائلاً : « أسعفني من لطفك على الجلوس . لقد يبست ضلوعي من البرد والرضوض . ما كنت أحسبني سأتحطّم فوق ما تحطّمت . ربي وإلهي ! »

وأسعف عباس الرجل . فاستوى جالساً وأسند ظهره إلى جذع الشجرة من ورائه ثمّ تنهّد عميقاً وقال :

ــ لا . ما كنت أظنني سأتحطّم إلى هذا الحدّ . لقد خانتني عيني ، فارتطمت بهذه الشجرة وأنا أحسبها ظلاً ، وهويت إلى الأرض فكان ما كان .

ــ وماذا كان ؟

ــ كان أن انخلعت رجلي الخشبيّة من الورك وتحطّمت . وكان أن وقعت على عكّازي فانكسر ، وأصابتني رضوض كثيرة . فبتّ ليلتي حيث وقعت . لقد خانني ضوء القمر كذلك .

والتفت عباس فأبصر رِجلاً خشبيّة مطروحة على الأرض وأبصر على قيد باع منها عكازاً مكسوراً . وعندما تأمّل الرجل مليّاً تبيّن أنّه بعين واحدة وذراع واحدة ورِجل واحدة . وأنّه من العمر ما بين الأربعين والخمسين . وأنّه كان فيما مضى على جانب كبير من متانة البنية وجمال الصورة .

كان الرجل يتكلّم لاهثاً من الإعياء ، ولكن من غير أن يكون في صوته أقلّ أثر للتبرّم والشكوى . الأمر الذي أثار في قلب عباس شفقة ممزوجة بالإعجاب . فما كان يدري كيف يخاطبه . إلاّ أنّه رأى أن يطرح عليه سؤالاً من باب المجاملة والملاطفة :

— من أين ، يا عماه ، وإلى أين ؟

— لا بل قل لي أنت من أين وإلى أين ؟ إن صفحتي توشك أن تنطوي — بل إنّها انطوت . أما أنت فما تزال من حياتك في المقدمة . فمن أين وإلى أين ؟

— من الحقل وإلى الحرب .

— إلى الحرب ؟ ! م — م — م ! لقد طالتك اليد المخضّبة بالدماء — طالتك يد الجيش . . .

— أجل . أنا ذاهب للالتحاق بالجيش .

— أذاهب أنت بإرادتك أم قسر إرادتك ، يا بني ؟

— بإرادتي ؟ ! وهل من يترك أهله وبيته ويمضي إلى الموت بإرادته ؟

— إرادة من ، إذن ، ساقتك من بيتك إلى حيث أنت ذاهب ؟

— إرادة الدولة والذين في أيديهم تصريف شؤونها .

— ومن أين للدولة الحق بأن تسوقك إلى الموت رغم

أنفك ؟ ألعلّها وهبتك الحياة لتتصرّف بها على هواها ؟

ـ ولكنها تحمي حياتي ، وتحمي بيتي ، وتحمي حريتي .

ـ ولأنها تحمي حياتك وبيتك وحريتك أصبح من حقّها أن تسلبك حياتك وبيتك وحريتك ساعة تشاء ؟ يا لغدر الحارس الذي يقضي على محروسه ! أما كان خيراً للحمَل لو لم يحرسه الذئب ؟

ـ ولكنني إن متّ ففداء الوطن وفداء الذين يحيون من بعدي . لعلّهم يتذوّقون طعم السلم الذي حُرمته والحرية التي لم أنعم بها .

ـ هه . هه . فداء الوطن . . . ألا تقبل نصيحتي يا بني ؟

ـ وما هي نصيحتك ؟

ـ عُد من حيث أتيت . تلك هي نصيحتي إليك . عد من حيث أتيت .

ـ ولكنني أُعَدّ إذ ذاك عاصياً على الدولة . . . وجزاء العصيان السجن أو الموت . . . ومَن أنا لأعصي الدولة ؟

ـ الدولة . وما هي الدولة ؟ أنت الدولة ! أنا الدولة ! لولاي ولولاك ولولا غيرنا من الناس لما كانت الدولة . لقد تضامنّا على الحياة فقط ما تضامنّا على الموت . ومتى أصبحت الدولة مورد حتوف لا مورد حياة للناس فلا كانت الدولة ولا كان الناس .

وبغتة انتفض الرجل وبسط كفّ يده الصحيحة على الأرض وطوى رجله السليمة كمن يهمّ بالوثوب . ولكنه ما استطاع أن يرتفع عن الأرض أكثر من شبر أو شبرين . فغمغم وتفل وعاد فالتصق بالتراب . ثمّ التفت إلى عباس بعين تقدح شرراً واستطرد فقال :

« دُعيت إلى الحرب قبلك . وكنتُ جاهلاً فلبّيت. ولقد فديت الوطن برِجلٍ من رِجليّ ، والسلم بذراع من ذراعيّ ، والحرّيّة بعين من عينيّ. وها أنا لا وطن ولا سلم ولا حرّيّة . ما كنت أملك من حطام الأرض شيئاً . وكلّ ما كنت أملكه شباب غضّ ، وآمال خضر ، وشغف بالحياة ما بعده شغف . وها هم الذين فديت شبابهم بشبابي ، وآمالهم بآمالي ، وحياتهم بربيع حياتي . ها هم الذين فقدت لذة الحياة لتبقى لهم أملاكهم يتهرّبون مني ، ويتقزّزون من منظري . فما أجد لي عندهم طعاماً ولا كساء ولا مأوى إلاّ ببذل ماء الوجه وعصر القلب ومحق النفس .

« لقد ضحيت بوطني وسلمي وحريتي ليكون لك ولأمثالك وطن وسلم وحرية . وها أنت وأمثالك تساقون — كما سيق أمثالي من قبلكم — إلى حيث الوطن جحيم والسلم حرب والحرية عبودية . فيا لضياع ربيع الحياة ، ويا لضياع العظام التي انسحقت ، والدماء التي انهدرت ، والأرواح التي

تبعثرت هباء في الفضاء ! إذا كان كبار الأرض وأولياء الشأن فيها جادين في زعمهم بأن الحرب تضمن السلم ، والموت يكفل الحرية ، فهم لا شكّ بُلْهٌ . وإن كانوا عابثين فهم لا شكّ مجرمون .

« ليردّوا إليّ رِجلي ويدي وعيني . ليردّوا إليّ كرامتي . ليردّوا إليّ زهو الحياة وليأخذوا كلّ ما في الأرض من أوطان . فما من وطن يوازي رِجلاً تعدو وترقص ، ويداً تقبض وتعمل ، وعيناً تبصر وتحلم !

« أيريد كبار الأرض أن يبتاعوا سلمهم بالدم ؟ فليبتاعوه بدمائهم ! أيريدون حرباً لصيانة أملاكهم ؟ فليخوضوا غمارها هم ! أيريدون حرية لأفكارهم وقلوبهم ؟ فليبنوا صروحها بأفكارهم وقلوبهم في أفكارهم وقلوبهم ! أما أنا وأنت ، يا بنيّ ، فما شأنهم منّا يسوقوننا بالأسواط وأعقاب البنادق لنقاتل أُناساً مثلنا لا عرفناهم ولا عرفونا فما أبغضناهم ولا أبغضونا . فنخرب ديارهم ويخربون ديارنا . وننهش لحومهم وينهشون لحومنا . ونهدر دماءهم ويهدرون دماءنا ؟ ما لتلك الغاية وُجدنا . بل وُجدنا لنحيا ، ولنحبّ الحياة ، ولنقهر الموت بالحياة .

« عد من حيث أتيت ، يا بني : فالحياة كنز لا توازيه كلّ جواهر الأرض وكنوز السماء . . . »

وأطبق الرجل شفتيه وعينيه من شدّة الإعياء . فارتبك عباس ولبث بضع دقائق في حيرة صامتة . ثمّ تنحنح وقال :

ـ انتظرني ريثما أذهب وآتيك بحماري فأحملك عليه إلى بيتي .

ولكن الرجل لم يفه بكلمة . ومضى عباس يعدو . وبعد ساعة عاد ومعه الحمار . فلم يجد للرجل أثراً إلاّ العكّاز المكسور والرجل الخشبيّة المحطّمة .

زلزال

طغى حديث الزلزال على حديث الثورة في سائر البلاد . فمن بعد أن استسلمت العاصمة للثوّار وراحت الملحقات تتبارى في إعلان ولائها لهم إذا بالأرض تُزلزل زلزالها ، وإذا بالعاصمة تغدو في طرفة العين أنقاضاً فوق أنقاض وقد اندلعت فيها ألسنة النيران مشبوبة بريح عاتية . فقال أنصار الثورة : حتّى الطبيعة ثارت على الطغاة والمستبدين . وقال مناوئوها : حتّى الطبيعة انبرت لمحاربة الأوغاد والمفسدين .

لقد هلك في الزلزال جمّ من البشر غفير ، وتلف خير كثير . وكان في جملة الذين كُتبت لهم النجاة زعيم الثورة وقائدها الأكبر ، وفتاة قيل إنها عشيقته ، ويده اليمنى في جهاده ، والدماغ المفكّر من خلف خططه وحركاته . وممّا يروى عنها أنّها من أسرة عريقة في أرستقراطيتّها ، وأنها لشدة تحمّسها للثورة ما تردّدت في اعتقال والدها والزّجّ به في السجن لأنّه كان من ألدّ أعداء الحركة الجديدة وأعنفهم نقداً وتشنيعاً للقائمين بها ، ومن أشدّ قوّاد الجيش إخلاصاً للحكومة القائمة وتعلّقاً بالنظام القديم . وهذه الرواية يرويها الناس عنها كانت

كافية لتجعل منها شبه بطلة أسطورية ولتكسب لها وللثورة أنصاراً عديدين ، وعلى الأخصّ بين الفلاّحين والعمّال والفقراء والمعدمين — وهم الأكثرية الساحقة في البلاد .

تنادى الباقون على قيد الحياة من رجال الثورة للتشاور في ما عساهم يفعلون . فالبلاد في فوضى ما بعدها فوضى بسبب التضعضع الناجم عن الزلزال ؛ والثورة في خطر وزمام الأمور يكاد يفلت من أيديهم . وممّا يزيد في تعقّد الحالة أن زعماء العهد القديم ، ومن بينهم والد الفتاة ، قد استعادوا حريتهم إذ تمكّنوا — بفضل الذعر والقلق والفوضى التي أشاعها الزلزال — من قتل حرّاس السجن وتحطيم أبوابه والفرار بأرواحهم . وهؤلاء ما داموا طليقين فلا يؤمن كيدهم . وقد يقلبون الأحداث رأساً على عقب فيعيدون كلّ شيء إلى ما كان عليه ، بل إلى أسوأ ممّا كان عليه ، وينكّلون برجال الثورة أفظع التنكيل . إذن لا بدّ من تعقّبهم أينما كانوا ، ولا بدّ من ردّهم إلى السجن ليحاكموا فيما بعد ويشهروا أمام الشعب . وإن تعذّر ذلك فلا مناص من قتلهم . وقد أجمع الكلّ ، وفي رأسهم الفتاة ، على أن والدها يجب أن يكون في مقدمة المطلوبين للمحاكمة — أو للموت . إذ إنّه ما برح ذا نفوذ عظيم في البلاد ، بالنظر لأعماله الحربيّة الباهرة التي أكسبته شعبيّة واسعة بين الجماهير . وبعد أخذ وردّ تكفّلت الفتاة لرفاقها بأن تأتيهم بوالدها

حيّاً أو ميتاً .

خرجت الفتاة من الاجتماع وقد تهيّأت لها الخطّة المثلى للقيام بالمهمة الموكولة إليها . فتزيّت بزيّ شاب قروي واكترت حماراً وسارت في طريق جبلي وعر تقصد ديراً يبعد عن العاصمة مسيرة يومين ، وهو يتسنم أكمة في وسط غابة كثيفة الأشجار والأدغال . وقد كانت على يقين من أن والدها لجأ إلى ذلك الدير لأن بينه وبين رئيسه صداقة قديمة ما كان غيرها يعرف عنها شيئاً .

بلغت الفتاة الدير قُبَيل هبوط الظلام . وطلبت مقابلة الرئيس في الحال . فكان لها ما أرادت . إلاّ أنّها كاد يرتج عليها عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام راهب طاعن في السنّ ، هزيل البدن ، منتصب القامة ، أبيض الهامة واللحية ، مخدد الجبين والوجنتين ، كثّ الحاجبين ، غائر العينين . وقد شاعت في أساريره ابتسامة لطيفة ، ناعمة ، يشقّ عليك أن تعرف أين تستقرّ : أفي الشفتين ، أم في العينين ، أم في القلب ، أم في مكان أعمق وأبعد من ذلك بكثير . قال الراهب بصوت فيه الكثير من الرقة والعذوبة والوقار :

ــ أهلاً وسهلاً يا ابني . تريد أن تبيت عندنا الليلة ؟

ــ أشكرك . ولكنني جئت بمهمّة .

ــ وما هي مهمّتك يا ابني ؟

– إني أحمل رسالة إلى الجنرال قيدوم . ولا بدّ من تسليمها في الحال .

– الجنرال قيدوم ؟ ومن قال لك إنّه هنا ؟

– الذي حمّلني الرسالة .

– ولكن . . . ولكن . . . من الذي حمّلك الرسالة يا ابني ؟

– سأبوح باسمه للجنرال .

– وأنت ما اسمك يا ابني ؟ وهل يعرفك الجنرال وتعرفه ؟

– أعرفه ويعرفني .

ارتبك الراهب المسكين وبدا عليه كما لو كان يحاول إخفاء أمر ولكن لسانه يأبَى عليه أن يفوه بغير الصدق . وبعد تردّد قال :

– انتظرني يا ابني ريثما أعود .

وعاد الراهب بعد فترة ظنّتها الفتاة طويلة جداً وفي يده مصباح ضئيل النور ، فرفع المصباح إلى وجه الزائر الغريب ، ومن بعد أن تأمّله مليّاً ، سأله بمنتهى الجدّ والبساطة :

– هل تحمل سلاحاً يا ابني ؟

فأجابته الفتاة ، وقد أقلقها سؤاله المفاجىء ، فنمّ صوتها وعيناها عن قلقها :

– كنت أجيبك « لا » لولا أن صدقك يجرّدني حتى من

سلاح الكذب . إني أحمل هذا المسدس .

ــ لا غير ؟

ــ وهذا الخنجر ، لا غير .

ــ هاتهما يا ابني . فأنت هنا في غنى عن أيّ سلاح . وتعالَ اتبعني .

ومشى الراهب ومن خلفه الفتاة ، على ضوء المصباح اللاهث ، فانحدرا في سلالم ثمّ سارا في دهاليز ضيّقة ، رطبة ، تتعرّج في كلّ ناحية ، إلى أن بلغا نقطة ينتهي عندها الدهليز بجدار واطىء كأنّه حجر واحد . ولشدّ ما كانت دهشة الفتاة عندما رأت الراهب الشيخ يدفع ذلك الحجر العظيم بيده فينفتح عن غرفة رحبة ، ويُسمع لانفتاحه صرير منكر يبعث القشعريرة في البدن والانقباض في القلب . لقد كانت أرض الغرفة مغطّاة بالحصر واللبد ، وفي زاوية من زواياها سرير ، وبالقرب منه ، تحت نافذة عالية في الجدار ، منضدة عليها شمعة كبيرة مضاءة وبعض الأوراق والكتب ، وقد جلس إليها راهب ما وقع نظر الفتاة على وجهه حتّى عرفت فيه والدها . فكاد الدم يجمد في عروقها ثمّ يتحوّل ناراً .

وانغلق الباب من تلقائه ، ولكن بمثل الصرير الذي رافق انفتاحه . وتقدم الرئيس من الراهب الجالس إلى المنضدة وقال في هدوء ورزانة :

– ها هوذا الرسول الذي أخبرتك عنه ، وقد عملت بوصيّتك فجرّدته من سلاحه .

وكأنّه بهذه الكلمات القليلة ، البسيطة ، قد أشعل فتيل قنبلة ما عتّم أن دوّى انفجارها . فما إن تفرّس الجنرال في ملامح « الرسول » حتّى صاح بصوت كأنّه قصف الرعد :

– يا خائنة ! يا أعقّ البنات ! يا أوقح الوقحات ! يا أحطّ المخلوقات ! أإلى هنا . . . أإلى هذا الحدّ بلغت بك الحساسة ؟ حنانيا . . . يا أخي حنانيا . كن على حذر . فالدير مطوّق بالثوّار . لا بدّ من الفرار . ولكن من بعد أن أشفي غليلي من هذه الخائنة . ولن يموت الجنرال قيدوم إلاّ شريفاً .

وهمّ الوالد بانتشال المسدّس من يد الراهب الشيخ الذي كاد يصعق لغرابة ما يشهد وما يسمع . إلاّ أنّه احتفظ من الوعي ورباطة الجأش بما يكفيه لصدّ صديقه عن المسدس والخنجر في يده . ثمّ ما لبث أن راح يخاطب الوالد الهائج بلهجة وبعبارات ردّت إليه رشده وهدّأت من ثورة أعصابه . إلاّ أنّه عندما فهم أن الرسول ما كان غير ابنة صاحبه اعترته رجفة وكاد يغمى عليه . ذلك لأنّه كان محظوراً على النساء دخول الدير الذي ما داست أرضه قدما أنثى على مدى تاريخه المديد . وهكذا انقلبت الآية وعاد الوالد يخفّف من هول « المصاب » على صديقه الراهب . وأخيراً هدأت العاصفة وصفا الجوّ إلى حدّ أن الراهب الشيخ

حمد ربّه وقال لعلّه عزّ وجلّ قد دبّر ما جرى بحكمته الفائقة كي يتاح له — وهو الراهب الحقير ، العاجز — أن يصلح ما أفسدته الأيام ما بين والد وابنته الوحيدة . وعندها طمأنت الفتاة والدها والراهب بأنّها لا تضمر لهما الشرّ ، وأنها جاءت الدير وحدها ، فهو ليس مطوّقاً بالثوّار كما توهّم والدها . فسألها الأخير بشيء من الامتعاض :

— إذن ما الداعي لمجيئك ؟

— جئت لأردّك إلى صوابك . ولأقتلك أو تقتلني إذا أخفقت في مهمّتي .

— أسمعت أيها الرجل القديس ؟ أسمعت ؟ جاءت تقتلني أو تقتل نفسها . وتقول إنها لا تضمر الشرّ . . .

حنانيا : عفواً يا أخي . لا تدعُني قديساً . كلّنا خطاة . ولكنني بينكما كالضائع لا أفهم ما أسمع ولا ما أُبصر . فأنت جئتني تقول إنّك مللت العالم ومشاكله وتريد أن تُمضي ما تبقّى من عمرك بعيداً عن الناس وقريباً من الله . وها هي ذي ابنتك تأتيني في زيّ شاب قاصدة قتلك أو قتل نفسها إذا هي أخفقت في ردّك إلى الصواب . ألعلّك فقدت رشدك ؟ أم لعلّها مجنونة ؟ أم أنّني أنا المجنون ؟ لست أدري . نجّنا يا الله من الشيطان وحبائله .

الوالد : دعني أبوح لك بما كان من واجبي أن أبوح به

ساعة دخلت هذا الدير . أما بلغك أن ثورة اجتاحت البلاد فأطاحت بالتاج والعرش ، وقضت على الملك ، وشرّدت عائلته ، ونشرت الذعر والفوضى في كلّ مكان ؟ فماذا كان عليّ أن أفعل — أنا قيدوم الذي وقف حياته على خدمة مليكه وبلاده ؟ أكان يليق بي أن أقف مكتوف اليدين فأترك البلاد نهباً لزمرة من الرعاع والمتشردين ؟ لا وربي . لقد فعلت ما يمليه الشرف والواجب . جمعت ما تبقّى من رجال الجيش الذين ما أدركتهم الخيانة وبهم زحفت على الثوّار الأوباش وكدت أقضي عليهم وعلى ثورتهم عندما نبتت الخيانة في عقر داري . والله لولا حرمة هذا الدير وحرمة ثوبك وشيبك وصداقتك يا أخي حنانيا لكنت أمزّق هذه الخائنة تمزيقاً وأرمي بلحمها للكلاب . لقد أفسدت ابنتي عليّ عملي ، واختطفت الظفر من يدي ، وأوشكت أن تقطع حبل حياتي . . .

حنانيا : وكيف ذلك ؟ أكاد لا أصدق .

الوالد : صدّق . صدّق . فقد وشت بي إلى الثوّار ودلّتهم على مخبئي . فاعتقلوني وزجّوا بي في السجن ليحاكموني ثمّ يعدموني ويجعلوا مني مثالاً لغيري من الباقين على ولائهم للعرش وللبلاد . وما كنت أدري أن ابنتي — لعنة الله عليها . . .

حنانيا : لا تلعنها يا أخي . لا تلعنها . اللعنة لا تجوز إلاّ على إبليس . حيث لا تستطيع أن تبارك فلا تلعن .

الوالد : بلى . بلى . لعنة الله عليها . فهي من الأبالسة . ما كنت أدري أنها على اتصال بهؤلاء الأوغاد . ولا كنت أحسب أنها ، من بعد أن أطعمتها لحم قلبي وأنفقت عليها وعلى تربيتها زهرة عمري وثروتي ، فمكّنتها من الدرس في أعظم الجامعات ، ستنسى فضلي ومحبّتي ، وستنضمّ إلى أعداء مليكي وبلادي ، وستمرغ بالوحل شرفي وشيخوختي ، ثمّ تنتهي بأن تسلّمني للموت من أيدي رعاع تتقزّز نفسي من مجرّد النظر إليهم . آه منها آه ! . .

حنانيا : ماذا تقولين دفاعاً عن نفسك يا ابنتي ؟

الفتاة : أترضى أن تكون حكَماً بيننا ؟

حنانيا : الحكم لله يا ابنتي .

الفتاة : دع الله جانباً . فقد يكون إلهك غير إلهي . نحن بشر ، وإني ، إذا صحّت فراستي فيك ، لن أجد قاضياً له عقل كعقلك ونزاهة كنزاهتك .

حنانيا : أستغفر الله يا ابنتي . تكلّمي .

الفتاة : ليفهم والدي قبل كلّ شيء أنّني أُحبّه ، ولكن ليس فوق محبّتي لنفسي . وأنّني أُقرّ بفضله عليّ . ولكنه فضل ضئيل جدّاً إذا ما قيس بما لمجموع الناس عليّ من أفضال . وأُحبّ نفسي لأني أُحبّ الحياة . ولكن لا قيمة للحياة عندي إلاّ بما فيها من طموح أبدي إلى الخير والعدل والمعرفة والجمال

والحرية . ولولا هذه لكان الموت خيراً من الحياة . والذي أُحبه لنفسي أُحبّه لسائر أبناء جنسي . وليس يؤذيني شيء في العالم مثلما يؤذيني أن أرى السواد الأعظم من الناس محروماً حقّه في العدل والمعرفة والحرية بفضل نظم رثّة فرضتها عليه أقليّة جائرة ، طاغية ، رعناء ، عمياء .

هنالك بشر — وما أكثرهم في الأرض — يزرعون ويحصدون ، ولكنهم أبداً جياع . ويغزلون وينسجون ، ولكنهم أبداً عراة . ويقتلعون الصخر ويبنون البيوت ، ولكنهم بغير مأوى . ويعملون في ظلمات الأرض كالمناجذ فيستخرجون منها كلّ أصناف المعادن ، ولكنهم أفقر من فأر في كنيسة . لذلك كانت الثورة في لحمي وفي دمي . وكان كلّ مَن يقاومها ويحاول إبقاء القديم على قدمه عدوّاً لي ولجميع المغبونين والمضطهَدين والمنبوذين والمَنسيين والمستعبَدين في الأرض . ولذلك كان والدي عدوّي .

حنانيا : الله يكره الظلم والظالمين يا ابنّي . ولدولة الظلم يوم ثمّ تدول .

الفتاة : أتدول من تلقائها ؟ أم ينزل الله من سمائه ليبيدها؟ إن كان ربّك يكره دولة الظلم فهو من غير شكّ ، يشدّ أزر العاملين على محقها ويبارك حتّى رصاصهم وقنابلهم . وإن كان ربك يكره الخير والعدل والمعرفة والجمال والحرية لأبنائه فهو

بكرهي أحرى منه بعبادتي .

أما ثار معلمك على الباعة الذين جعلوا بيت أبيه « مغارة لصوص » ؟ أما حطّم موائدهم وجلدهم بالسياط ؟ فعلامَ تستغرب ثورتي وثورة الناس على شرذمة من الحكام والجشعين والمفسدين الذين حوّلوا هذه البلاد — بل الأرض كلّها — إلى مغارة لصوص ؟

حنانيا : ولكن الله يؤدب بنيه باللطف لا بالعنف . فالقتل في شرعه حرام .

الفتاة : بل قل إنّه لا يؤدّب بنيه إلاّ بالعنف . وكفاك بالموت مثلاً . فكيف بالأوبئة وبالأعاصير وبالمجاعات وبالزلازل ؟ الثورة من سنّة الطبيعة — أو قل من سنّة الله . وهي ترمي إلى تصحيح ما اختلّ في توازن الحياة البشريّة مثلما يرمي الزلزال إلى تصحيح ما اختلّ في توازن الأرض . الثورة زلزال بشري يا أبت . وهي من ناموس ربّك شئت أم أبيت .

حنانيا : أُعيد القول يا ابنتي إن الله يوصي باللطف لا بالعنف . وبالمحبة لا بالبغض . ولا تنسي أن الإنسان من روح الله . فناموسه غير ناموس التّراب والنبات والحيوان . الإنسان مطالَب بدم أخيه الإنسان . وليس كذلك الحيوان . أسمعت بذئب أُغميَ عليه عند منظر دم ذئب آخر ؟ ولكنك سمعت من

غير شكّ بأناس كثيرين أُغمي عليهم لدى منظر الدم يتفجّر من عروق إنسان آخر .

الفتاة : وأنا منهم .

حنانيا : إنّ في ذلك وحده يا ابنتي لعبرة لقوم يعتبرون . الإنسان ذو عقل وخيال وضمير وإرادة . وليس كذلك الحيوان . ولكنّ مثل الأكثرية الساحقة من الناس مثل الذي دفن الوزنة المعطاة له بدلاً من أن يتّجر بها . إنّهم يدفنون خير ما حباهم الله من هبات روحية في التكالب والتقاتل على ما يهلك الروح والجسم معاً . ثمّ يعجبون للأوبئة والمجاعات والأعاصير والزلازل ، وللحروب والثورات توردهم حتوفهم قبل الأوان . لقد حبلت الأرض بالآثام والموبقات فلا عجب أن تلد الآثام والموبقات . ولقد استعر قلبها بنيران الباطل فانحجب عن أبصارها نور الحقّ . وإنّه لمن الإثم يا ابنتي أن نرى بيتاً يحترق فنسكب على النار زيتاً . مَن أحبّ الناس يا ابنتي فليخفّف من غلوائهم في التهالك على التراب ، وليرفع قلوبهم قليلاً إلى فوق — إلى السماء — إلى الله .

الفتاة : وما هي السماء ؟ وأين هي ؟ وما هو الله ؟ وأين هو ؟

حنانيا : السماء في قلبك يا ابنتي . فأنت كلّما فكّرت في الخير وعملت الخير كنت في السماء . والله في قلبك كذلك

يا ابنتي . فأنت كلما أحببتِ مخلوقاته كنت فيه وكان فيك . إنه قوة الحياة في حياتك ، وهو معناها الأعمق والأسمى وهدفها الأبعد والأسنى .

الوالد : كفاك يا أخي حنانيا . ويا لضياع وقتك ونفسك . قد يبتلّ الصخر بالطلّ قبل أن يبتلّ قلب هذه المجنونة بندى قلبك الطاهر . كفاك . وهات قل لي : أين ترى أن تدبّر لها مكاناً تنام فيه ؟ فمن الجنون أن تعود وحدها الليلة إلى العاصمة .

حنانيا : أجل . أجل . ذلك مستحيل . أمن بأس لو قضت ليلتها في هذه الغرفة وانصرفت في سبيلها قبل بزوغ الفجر ؟ وأنا آتيها بفراش ولحاف .

الوالد : لا بأس من جهتي ، وسأحاول أن أعود أباً صالحاً – ولو لهذه الليلة .

الفتاة : ولا من جهتي . وأنا سأحاول أن أعود ابنة صالحة – ولو لهذه الليلة .

ليس مَن يدري ما دار من حديث في تلك الليلة بين الوالد وابنته . ولكن أهل البلاد ، وقد انقضى على ذلك عام وبعض العام ، ما برحوا يتحدّثون عن الفتاة التي أصبحت راهبة في دير ، وكانت من أعنف دعاة الثورة ، وعن والدها الذي انضمّ إلى صفوف الثوّار وقادهم إلى النصر بعد أن كان خصم الثورة الألدّ .

هدية الحيزبون

كنّا نتنادر الأخبار من باب «أغرب ما سمعت وما رأيت». وكانت بيننا سيّدة في السبعين من عمرها مشهود لها بالصدق والرزانة والتقوى. وبحسن الصورة وأناقة الهندام. وكانت تصغي بانتباه إلى كلّ رواية تُروَى، ولكن من غير أن تشترك في الحديث. فكان من الطبيعي أن نلتفت إليها التفاتة ذات معنى عندما أفرغ كلّ منّا جميع ما في جعبته فلم يبقَ أمامنا غير الصمت المزعج.

وفهمت السيّدة معنى التفاتتنا، فاعتدلت في كرسيّها، وردّت خصلة من شعرها الفضي إلى ما وراء أذنها، ثمّ ثبّتت خاتم الألماس في خنصرها وتنحنحت، فقال أحدنا:

— كلّنا آذان مصغية يا سيدتي.

قالت السيّدة: «أرجو أن لا يثقل على آذانكم ما سوف ألقيه فيها فيتهمني بعضكم، أو كلّكم، بالمبالغة أو بما هو أفظع من المبالغة — بخفّة العقل.»

فأجبنا بصوت واحد: «حاشا. حاشا!»

وكأنّ السيدة اطمأنّت إلى ما في أصواتنا من صادق

الاحترام لها ومن عظيم الشوق إلى سماع روايتها ، فتنحنحت ثانية ومضت في حديثها :

« وُلدت ونشأت في قرية نائية انتشرت فيها الخرافات بأنواعها . وكانت تعيش في جوارنا أرملة عجوز لقّبها أحد الظرفاء بالحيزبون . فلبسها اللقب حتى بات ألصق بها من اسمها الحقيقي . وكانت تسكن كوخاً غاية في الحقارة والقذارة ، وكان يُعرف في القرية باسم « بيت الضبعة » . وكان صغار القرية ، والبعض من كبارها لا يجرؤون على الدنوّ منه لكثرة الإشاعات الغريبة التي كانت تحوم حوله وحول ساكنته . ومن تلك الإشاعات أن الحيزبون ، يوم كانت في شرخ شبابها ، تزوّجت من أحد أنسبائها من غير معرفة والديها ووالديه ورضاهم . فلعنها والداها ، مثلما لعن زوجَها والداه . ورُزق الزوجان اللعينان غلاماً . وذات مساء جاءها زوجها بساحر من المغرب . والساحر أقنعها وأقنع زوجها بأن في زاوية من زوايا بيتهما قد دُفنت برنية تحتوي ثروة عظيمة من الذهب المسكوك . ولكن الكنز كان مرصوداً على دم طفل ذكر يكون بكر أبويه .

ليس من يجزم بما جرى تلك الليلة في بيت الزوجين المغضوب عليهما . ويجزمون بأن الساحر اختفى قبل طلوع الفجر ، مثلما اختفى الطفل ، وقد ادّعى الوالدان يومئذٍ

أن الساحر خطفه وأنهما راحا يطلبانه في كلّ مكان فما وقعا له على أثر . وبعد أيام شيعت القرية الزوج إلى المقبرة . وقد قيل يومئذ إن الرجل مات متسمّماً من أكلة جبنة خضراء . وهكذا بقيت أرملته وحدها ، مغضوباً عليها من الجميع وهدفاً للشكوك في براءتها من دم ابنها وزوجها .

عاشت الحيزبون إلى ما فوق التسعين . وقد أمضت السنوات الخمس الأخيرة من عمرها المديد طريحة الفراش . وذلك على أثر وقعة وقعتها على عتبة بيتها ، كان منها أن انخلعت وركها من الحُقّ . وليس من يعرف كيف عاشت من بعد وفاة زوجها . ولا من أين كانت تأتي بما يقوم بأودها . على أنها اشتهرت بشحّها ، وبانطوائها على نفسها ، وببغضها لجميع الناس ، وبأنفتها البالغة حدّ الكبرياء . فما قيل عنها إنها قبلت إحساناً من أحد ، إلاّ من بعد أن لزمت فراشها ولم يبقَ في إمكانها أن تعول نفسها . فقد باتت تقبل معونة من بعض جاراتها اللواتي أخذتهن الشفقة عليها في محنتها ، فرحن يقدمن لها ما تيسر من الزاد والخدمة لوجه الله الكريم .

*

كنت في العشرين من عمري عندما جاءني ذات صباح من يقول لي إن الحيزبون تطلب مقابلتي وتلحّ في الطلب . وكان ذلك قبل موعد زفافي بيوم واحد . فارتجفت أمعائي في داخلي ،

وانقبض قلبي ، وتعوّذت من الشيطان . إذ إنّ مجرّد التفكير في « بيت الضبعة » كان كافياً لنشر القشعريرة في بدني . فاعتزمت الرفض . إلاّ أنّني عدت فخجلت من نفسي وقلت : لعلّ لها حاجة لا يستطيع قضاءها غيري . فالرفض عيب وحرام . ولماذا الجزع ؟ فالحيزبون طريحة الفراش ، ولا يُعقل أن تنوي بي سوءاً . وبالنتيجة ذهبت .

دخلت على العجوز فألفيتها جالسة في فراشها الممدود على الأرض ، وقد سندت ظهرها إلى حائط تفشّت الرطوبة من أعلاه حتّى أسفله . ووجدتها تنكت بالملقط رماداً في موقد بالقرب منها ، كأنّها تفتّش فيه عن جمر ولا جمر فيه . ولولا أنّني تمالكت نفسي لصرخت من الذعر حالما وقع بصري عليها . فشعرها الأشعث وقد تدلّى خصلاً على كتفيها وجبينها ، ووجهها المتقلّص المتجعّد وقد علته صفرة الموت ، وعيناها الصغيرتان ، الذاويتان والغارقتان في محجريهما فكأنّهما تنظران إليك من خلال أبديات سحيقات ، وأصابعها الّتي لم يبقَ عليها إلاّ الجلد ، وقد طالت أظافرها وانحنت فكأنّها المخالب ، ولحافها وفراشها ووسادتها وقد مزّقها طول الاستعمال وسوّدها الوسخ ، والحصير الذي تناثر قشّه فانكشفت من تحته بقع من التّراب ، والعتمة الغبراء المثقلة بروائح النّتن والعفن ، وجدران الكوخ المتداعية وسقفه الأدخن — كلّ ذلك كان

كفيلاً بأن يبعث الرجفة في بدن فتاة مثلي .

لست أدري من أين جاءتني القوّة العجيبة للتغلّب على الذعر الذي ضيّق عليّ أنفاسي . ولعلّها جاءتني من صوت الحيزبون نفسها حالما نادتني باسمي وقالت : اقتربي يا بنيّتي . اقتربي مني ، لا تخافي . فسألتها وفي قلبي موجة عارمة من العطف عليها :

– أجائعة أنت ؟

فجاءني جوابها بصوت متقطّع ، خافتٍ ما كدت أسمعه :

– شكراً يا بنيّتي . لم يبقَ بي من جوع إلاّ إلى الموت – وقد أصبح على قيد أنملة منّي – وإلاّ إلى حاجة لن يقضيها لي غيرك . أتعدينني بقضائها ؟

قلت :

– أرجو من صميم قلبي أن يكون قضاؤها في مستطاعي .

قالت :

– بلغني أنّك ستُزفّين غداً إلى شاب على جانب كبير من العلم والثروة . أنتِ أهلٌ لكلّ خير يا بنيّتي . وفّقك الله . والجيرة تقضي بأن أُقدّم إليك هديّة . إلاّ أنّني لا أملك ما أهديه إليكِ . وأملك القحة لأطلب منكِ هدية . فهل تبخلين بها عليّ ؟

قلت بشيء من اللجاجة :

– وما هي ؟

قالت :

– أريد منك أوّلاً أن تطبقي أجفاني بيديك الناعمتين عندما يدركني الموت . وأريد منك ثانياً أن تطبقي فمي على شيء من الذهب – على ليرة واحدة لا أكثر . ولا ذهب عندي . وعندك منه الشيء الكثير . هل تستطيعين ذلك ؟

قلت وقد أدهشني طلبها :

– إذا أنا لم أستصعب طلبك فإنّي أستغربه . وأستغربه جدّاً. فما قصدك من إطباق فمك على شيء من الذهب في ساعة الموت ؟

عندها لمحت ما يشبه البريق في عيني العجوز ، وأبصرت جسدها المتهدّم يهتزّ كأن قد مسّه تيّار من الكهرباء ، ثمّ سمعتها تقول وكأنّها تهذي :

– بي جوع ، بي نهم ، بي لهفة إلى الذهب . أجمل ما في الأرض ، وأبقى ما في الأرض ، وأثمن ما في الدنيا – الذهب . الذهب سيف . الذهب جناح . الذهب عزّ . الذهب سلطان . في الذهب الحقّ . في الذهب العدل . في الذهب القوّة . في الذهب الخبز والخير . كلّ يعبد ويعشق على هواه . وقد عبدت الذهب وعشقت الذهب ، وأيّ غرابة في ذلك ؟ أما رضي إبراهيم أن يقدّم ابنه ذبيحة لربّه ؟ وأنا قدّمت ابني الوحيد

ذبيحة للذهب . فهو ربي . فما شأن الناس معي ؟

«في هذا الكوخ ذُبح ابني وبكري ووحيدي . ذبحه الساحر من المغرب . وللحال ابتسم معبودي لي عندما انكشف الكنز للساحر : برنية ملأى بالدنانير الذهبيّة . رأيتها بعينيّ ولمستها بيدي . ولكنني اشتريتها بدم وحيدي وبكري . وكنت وزوجي قد تعهّدت للساحر المغربي أن نؤدي له ثلث الكنز . فشقّ عليّ وعلى زوجي ، وقد أصبحت الدنانير في حوزتنا ، أن نفرط بواحد منها . وهكذا ذهب المغربي كذلك ضحيّة الكنز الذي اكتشفه . وقد حفرنا للضحيتين جدثاً واحداً في أرض هذا الكوخ . هناك ، هناك ، في تلك الزاوية .

« ذلك المغربي لعنة الله عليه . تفقّدنا البرنية من بعد موته فإذا الذي فيها رماد . لقد حوّل الذهب إلى رماد . لعنة الله عليه . وعندما طار الذهب طار عقلي . ألعلّني ما اشتريت بدم ولدي إلاّ حفنة من الرماد ؟ جننت . نعم ، جننت . ولو حلّ ما حلّ بي بقديس أو بملاك لجنّ جنونه . ومن لا يفقد رشده وقد ابتاع ذهباً ومجداً وعزّاً بدم ابنه الوحيد ، فإذا به لم يبتع في الواقع إلاّ حفنة من رماد ؟ وهل يلومني لائم إذا أنا سممت زوجي من بعد ذلك ؟ ما نفع الزوج ، ما نفع العالم ، ما نفع الدنيا من بعد أن قهرني ذلك الساحر اللعين في أعزّ ما عندي . في ابني وفي الذهب الذي ابتعته بدمه ؟

« سبعون عاماً . سبعون عاماً بنهاراتها ولياليها أنفقتها ولا رفيق لي إلاّ ذهبي المترمّد ورفات ولدي الذبيح والساحر الذي سبّب ذبحه . لا يقشعرنّ بدنك يا بنيّتي . اتفلي في وجهي إذا شئت . اركليني إذا شئت . قولي فيَّ كلَّ كلمة شنيعة . ولكن رجوتك بأعز عزيز لديك أن لا تخيّبي طلبي ، وأن تأتيني بليرة ذهبيّة تطبقين عليها فمي . فالذهب مفتاح كلّ شيء . مفتاح الجنّة كذلك . لعلّني ، وقد خسرت الدنيا ، أكسب الآخرة . »

وانخفض صوت الحيزبون إلى درجة الهمس ، ولا عجب . فقد كان فيما قالته إجهاد وأيّ إجهاد للبقيّة الباقية من الحياة في صدرها . أما أنا فانتابني شيء من الغثيان حتى بتّ أخشى أن يغمى عليّ . وخامرني شعور بأن الحيزبون ما كانت إلاّ جنّيّة تحاول أن تصطادني بشباك سحرها . لكنها ما عتّمت أن ردّت شيئاً من الطمأنينة إلى نفسي عندما أشارت بيدها إلى زاوية من زوايا البيت ، وقالت بصوت كلّه انسحاق واستغاثة :

« لا تخافي يا بنيّتي . أنا جيفة ولا خطر مني على أحد . أشفقي عليّ ، رضي الله عليك . هنالك ، في تلك الزاوية ، ارفعي جانب الحصير . تحت الحصير قطعة من الحبل . شدي بها إلى فوق فالغطاء مشدود بها . تحت الغطاء تجدين البرنية . إيتيني بها لأضع حفنة من رمادها في عينيّ ، هو رماد كنزي

ورماد ابني . لا تجزعي . جزاك الله عني كلّ خير . »

وعملت بإشارة الحيزبون . وإذا هناك في الواقع برنية عليها غطاء من جلد . وعندما ناولتها العجوز وهذه رفعت عنها غطاءها ، شهقت شهقة خلت أنها أسلمت معها الروح . فالتفتّ وإذا البرنيّة مملوءة حتّى أعالي فوهتها بالذهب الوهّاج ! وإذا العجوز تحفن حفنة منها بيمينها وأخرى بيسارها وتحاول الكلام فلا ينطلق صوتها من حنجرتها . وأخيراً سمعتها تتمتم وكأنّها في الرمق الأخير :

— وجهك سعد . وجهك خير . هذه اللحظة تكفّر عن عذاب تسعين سنة . الآن أموت كما كنت أشتهي أن أعيش . لا تذهبي قبل أن تغمضي أجفاني وتطبقي فمي . وهذه البرنيّة لا تدفنيها معي . خذيها . خذيها . هي هدية الحيزبون لك . . . في يوم عرسك .

وانقطع صوت الحيزبون ، وارتخت مفاصلها ، والتوى عنقها ، وانطفأ النور في عينيها ثمّ شخرت من بعدها شخرة كانت الأخيرة . فأطبقتُ أجفانها وفمها .

وعندما هممتُ بالانصراف ألقيت نظرة على الذهب في قبضتيها فإذا به رماد ، وفي البرنيّة فإذا به رماد كذلك . »

ميلاد جديد

صرف الوالد والوالدة والخادمة جلّ نهارهم في تركيز شجرة الميلاد وتزيينها بالمصابيح الملوّنة والهدايا المنوّعة ، الثمينة . فجاءت تحفة نادرة . وقد سخا الوالدان عليها بالذوق والمال — وكلاهما موفور — لعلّها تُدخل شيئاً من البهجة إلى قلب وحيدهما البالغ من العمر عشر سنوات والمصاب بالشلل منذ خمس سنين .

وعند الساعة الثامنة مساء — مساء العيد — حمل الوالدان ابنهما إلى حيث كانت الشجرة ، فأجلساه في مقعد وثير ، وقالت الأم :

— ما قولك يا ابني ؟ أنضيء الشجرة الآن ؟

وإذ لم يجبها الصبيّ كرّرت سؤالها وأضافت :

— هاك زرّ الكهرباء . اضغط عليه تتلألأ الشجرة في الحال . إنها أجمل شجرة أقمناها لك يا حبيبي منذ تسع سنوات . أي منذ السنة الأولى بعد ولادتك .

ولكنّ الصبيّ ظلّ صامتاً . وأزعج هذا الصمت والدته . فتابعت الكلام محاولة أن تكشف عما وراء ذلك الصمت :

ـــ لقد ولدت يا ابني والمسيح في ليلة واحدة ــ بل في ساعة واحدة ــ عند منتصف الليل . ولذلك أسميناك « ميلاد » .

عندها فتح الصبيّ فاه ، وبصوت خافت فيه الكثير من الحرقة قال :

ـــ ردّوني إلى فراشي .

فاضطربت أمّه واضطرب أبوه أيّما اضطراب . ورامحا يمطرانه وابلاً من الأسئلة : هل يشكو ألماً ؟ هل لم تعجبه الشجرة ؟ هل أزعجه أحد بأيّ كلمة أو حركة ؟ فكان جوابه واحداً : « ردّوني إلى فراشي » . وعندما راح والده يغريه بالهدايا النفيسة الّتي جاؤوه بها ويعدّدها واحدة واحدة ، انتفض الصبيّ وضرب المقعد بيده وصاح :

ـــ ردّوني إلى فراشي . لا أُريد الهدايا . أريد أن أنام .

ـــ ألا تصبر قليلاً لترى الهدايا ثمّ تنام ؟ ـــ قالها الوالد وكأنّه قد ضاق ذرعاً بتصرّف ابنه .

ـــ ما نفع الهدايا ما دامت الهدية الوحيدة الّتي أريدها ليست منها ؟

فتطوّعت الوالدة للجواب وسألت الصبيّ بلهفة وحرقة :

ـــ وما هي الهدية الّتي تريدها يا روح أمّك ؟

ـــ أريد أن أمشي .

ـــ ليت لي أن أعطيك رجليّ . . .

ـ أريد أن أمشي برجليّ لا برجليك .

وران سكوت عميق في القاعة الكبيرة . وكان الوالد أوّل من قطع السكوت إذ قال :

ـ لو كنّا نعرف أنّ في آخر الأرض طبيباً يستطيع أن يردّ الحركة إلى رجليك لبعنا كلّ ما نملك وجئناك به . ولكن . . .

وأسعفت الوالدة زوجها فأضافت :

ـ أتعرف يا حبيب أمّك وأبيك من الذي يقدر أن يأتيك بتلك الهديّة ؟ إنّه ذلك الذي نعيّد غداً يوم ميلاده .

ـ تعنين المسيح ؟ أنا عاتب على المسيح لأنّه يعرف منذ خمس سنوات أني مشلول ولم يشفني .

ـ لعلّك لم تطلب إليه ذلك بحرارة وإيمان .

ـ ليشفني من غير أن أطلب .

ـ بل عليك أن تطلب . عليك أن تصلّي حتى تشعر أن كل خليّة ـ كلّ شعرة ـ كلّ قطرة دم فيك تصلّي . والآن

ـ هل تريد أن تضيء الشجرة ؟

ـ لا . . . ردّوني إلى فراشي . أريد أن أنام .

ـ ليكن لك ما تريد . وما دمت لا تريد أن تسهر فأنا ووالدك سنذهب لعند خالتك ونمضي السهرة هناك .

ـ أوصي زينة أن توقظني عند منتصف الليل . أريد أن

أسمع أجراس بيت لحم .

– سأوصيها يا ابني ، ويا روحي . نم مطمئنّ البال . وليحرسك صاحب العيد .

بعد انصراف والديه ، وقبل أن يستسلم للنوم ، راح الصبي يناجي المسيح فيقول :

« أنا ولد حزين ، بائس ، مسكين يا يسوع . الأولاد والكلاب والقطط والديدان – جميعهم يمشون . ولي رجلان ولا أمشي . الدنيا كلّها تمشي . وأنا لا أمشي . الشمس والقمر والنجوم لغيري وليست لي . الأرض ليست لي . البحر ليس لي . الشجر والجبال والعصافير والأزهار ليست لي . ليس لي شيء إلاّ هذا السرير الذي سئمته . لي رجلان ولكنني لا أمشي .

« أخبَروني يا يسوع أنّك أقمت الموتَى ، وشفيت العميان والكسحاء . وأنا ميّت يا يسوع فأقمني . وأنا أعمى يا يسوع فافتح عينيّ . وأنا كسيح يا يسوع فاجعلني أمشي . غيري من الأولاد يعيّدون الليلة ليلة ميلادك يا يسوع . وأنا وُلدت ليلة ميلادك . واسمي ميلاد . ولكنني لا أستطيع أن أعيّد مع المعيّدين . وها أنا وحدي . وأنت تحبّ الأولاد . فتعالَ نعيّد معاً .

« أبي غنيّ يا يسوع . وأمّي غنيّة . وكلاهما مستعدّ أن

يعطيك كلّ ما يملك إذا أنت شفيتني . فتعالَ نسمع معاً أجراس بيت لحم . تعالَ نضيء الشجرة . ولك كلّ ما عليها من هدايا . تعال يا يسوع تعال ! »

*

كان للخادمة زينة شاب أحبّها وأحبّته وتواعدا على الزواج ولكنهما كانا يشكوان الفقر . لذلك كان الشاب — واسمه نصّور — يحثّ زينة على سرقة شيء من مجوهرات سيّدتها . وزينة تتردّد وتخشى الفضيحة . إلى أن كانت تلك الليلة ، وخلا لها الجوّ . وعلى الأخصّ عندما رأت أنّ سيّدتها قد نسيت المفاتيح في خزانتها الّتي أودعتها كلّ مجوهراتها . ولكنها — أي زينة — لم تجد في نفسها المقدرة على السرقة . فقد خانتها أعصابها وقام ضميرها يجلدها جلداً . وكان عشيقها قد هدّدها بالقطيعة إذا سنحت لها مثل تلك الساعة ولم تخبره . فذهبت في طلبه ولم يعودا إلاّ قبيل منتصف الليل بقليل . ومن بعد أن درس نصّور وضعيّة البيت ، وعرف أن الخزانة في الغرفة الّتي ينام فيها الصبيّ ، وأن هناك شبّاكاً يعلو عن الأرض نحو ثلاثة أمتار ، أمر زينة بأن تأتيه بمرسة ومنديل وقميص نوم أبيض . ولم يُلقِ أيّ بالٍ إلى توسّلات زينة بأن يقلع عن مغامرته الشيطانيّة ويعود من حيث جاء . بل أخذ المرسة وكبّلها بها ، والمنديل فربطه على فمها . وألقاها على

أرض المطبخ حتى إذا عاد سيّداها وعرفا بالسرقة ادّعت أنّ مجهولاً دخل البيت من الشباك وفعل بها ما فعل حالما حاولت أن تصرخ وتستغيث . أما القميص فارتداه نصّور فوق ثيابه ، ومضى إلى غرفة الصبيّ ، وأضاء النور وسار توّاً إلى الخزانة .

وكان أن استيقظ الصبيّ على حركات نصّور . فما ذعر قطّ ، ولكن سأله بدهشة :

ـ مَن أنت ؟ ـ فأجابه نصّور متصنّعاً الرصانة :

ـ أنا المسيح .

ـ وماذا جئت تعمل ؟

ـ جئت أطلب من والديك مالاً لأوزّعه على الفقراء في ليلة العيد .

ـ والداي ليسا في البيت . في الخزانة التي من خلفك مجوهرات ومال كثير . ومن حسن حظّك أن أمّي ، على غير عادتها ، قد تركت المفتاح فيها . خذ منها حاجتك .

ـ شكراً .

ـ ولكن . . . ولكن أهذا كلّ ما جئت من أجله ؟ أما جئت لأني دعوتك ؟

ـ ولماذا دعوتني ؟

ـ دعوتك لنعيّد معاً . . . لنسمع أجراس بيت لحم معاً . دعوتك لـ . . . لتجعلني أمشي .

ـ ومن قال لك إني أستطيع أن أجعلك تمشي ؟

ـ كلّهم . كلّهم : البابا . الماما . الخوري . المطران . حتى الأطباء الذين يعالجونني سمعتهم يقولون إن شفائي لن يكون إلاّ بعجيبة . وإنّك وحدك تصنع العجائب .

ـ وأنت ماذا تقول ؟

ـ أقول إنّه لن يشفيني غيرك .

ـ إذن تريد أن تمشي ؟

ـ نعم . نعم . ولست أريد منك غير ذلك .

ـ وأنت تحبّني ؟

ـ أكثر من محبّتي لأبي وأمّي .

ـ هات يدك . وقم وامشِ !

ولشدّ ما اندهش الصبيّ وبلغ به الفرح عندما نهض من فراشه ومشى . فراح يرقص ويصيح بأعلى صوته :

ـ يسوع ! يا يسوع ! يا مسيح ! ما أقدرك ! ما أعظمك ! ما أكرمك ! دعني أقبّل يديك . دعني أقبّل رجليك . يا ألله ! يا ألله ! يا ألله ! لا أصدّق أنّني واقف على رجليّ ـ أني أمشي وحدي . بابا ! ماما ! يا كلّ الناس ! تعالوا انظروني أمشي وحدي .

عندها سمع الولد الباب الخارجي يُفتح ويُقفل . فكاد يطير من الفرح وراح يصيح :

– جاء البابا والماما . . . بابا ! ماما !

ولكنه التفت بغتة إلى الرجل الغريب فإذا به يقفز من الشباك . فراح يتوسّل إليه :

– إلى أين يا يسوع ؟ لا تقفز من الشباك . ابقَ ريثما تدخل أمي ويدخل أبي . دعهما يريانك ويشكرانك . لماذا قفزت ؟ لماذا تقفز من الشباك ؟ عُد يا يسوع لنضيء الشجرة معاً ، ولنسمع أجراس بيت لحم معاً ، ولنعيّد معاً . إنّه عيد ميلادك وميلادي – ميلادي الثاني – ميلادي الجديد .

في تلك اللحظة دوّت الغرفة برنين أجراس بيت لحم .

الورقة الأخيرة

تمثيلية في فصل واحد

الأشخاص :

سميرة — على عتبة العشرين .

سمير — أخوها . في الثانية والعشرين .

أمين — خطيبها . في الخامسة والعشرين .

الوالد — في الخمسين .

الجد — في الثمانين .

المكان : ردهة استقبال في بيت فوق الدرجة المتوسطة .

الزمان : بعيد الحادية عشرة من مساء الحادي والثلاثين من كانون الأول « ديسمبر » .
في الخارج تنهمر أمطار غزيرة ترافقها ريح عاصفة وبرق ورعد .

المشهدُ الأوّل

الجدّ وسَمِيرة

الجد : أما من خبر بعد يا سميرة ؟

سميرة : من أين يا جدّي ؟

الجد : من المستشفى .

سميرة : بلى . بلى . (متلعثمة) لقد جاءنا خبر أن الماما . . . وضعت . . . وضعت غلاماً .

الجد : (بفرح) الحمد لله . ليهنئك يا بنيّتي هذا الأخ الجديد يأتيك من بعد ثلاثة ما كُتبت لهم الحياة . إنها بشارة خير وطالع سعد للسنة الجديدة .

سميرة : ولكنه . . . ولكنه هو كذلك . . .

الجد : ولكنه ماذا ؟ وُلد ميتاً !

سميرة : أجل . وُلد ميتاً يا جدّي !

الجد : (بحرقة وغصّة) تبارك اسمك يا ربّي ! أنوء بالثمانين ويموت أربعة من أحفادي قبل أن يبصروا النور ! أما كان الأحرى أن أموت ويحيا المولود الجديد ؟

سميرة : (تهرع إليه وتضمّ رأسه إلى صدرها) جدّي ! حبيبي ! قلبي ! لا تقل مثل هذا القول لسميرة . إنك يوم تموت تموت سميرة معك . لا كان الموت.

الجد : (متأثراً) أعيذك بالله يا ابنتي مما تقولين . بل قولي ألف مرحباً بالموت لمن شبع ، مثل جدك ، من الحياة .

سميرة : وأنا كذلك شبعت من الحياة .

الجد : أنت ؟ ! أنت شبعت من الحياة وما تزالين على عتبة العشرين ؟ ذلك ضرب من الكفر .

سميرة : ولكنني أؤثر الموت على حياة ليس فيها جدّي .

الجد : أنت تبالغين يا بنيّتي في حبّك لجدّك على قدر ما تبالغ أمّك في كرهه . حتى أبوك يا سميرة — أليس أنّه ابني ومن لحمي ودمي ؟ وهو ، مع ذلك ، قد أخذ يتبرّم بي . وعلى الأخصّ ، بعد أن فقدت بصري .

سميرة : ليت لي أن أعطيك بصري يا جدّي .

الجد : لقد أعطيتني ما هو أثمن من العين المبصرة يا بنيّتي — أعطيتني قلباً مبصراً .

سميرة : آ . جدي ، جدي ! إنّك تلاطفني فوق ما أستحق. أو أنّك تسخر بي .

الجد : معاذ الله يا ابنتي . بل أقول الحقّ .

سميرة : ومن أنا – ولست غير فتاة جاهلة – لأعطيك قلباً مبصراً وأنت الكاتب الذي أنارت مؤلّفاته آلاف القلوب ؟

الجد : صدّقي يا سميرة . إنّه لولا المحبّة التي تنهلّ عليّ شآبيبها من قلبك الطاهر لكانت شيخوختي رزية لا تطاق ولكان كلّ ما ألفته في حياتي هراء في هراء .

سميرة : هذه مغالاة في التواضع يا جدي .

الجد : صدقيني يا ابنتي . إنّه ما هالني يوماً من الأيام أن يُغمض الموت أجفاني . وهالني أن تبلغ بي الحياة شيخوخة كهذه الشيخوخة ثم أن تغمض عني أجفان الناس فلا يكون نصيبي منهم غير نصيب الليمونة المعصورة .

سميرة : وهذه مغالاة في التشاؤم .

الجد : قوتل الفكر فما أكثر مخاوفه ، ولكن الحياة كانت أرفق بي من فكري إذ وصلت أواخر أيامي بأوائل أيامك . فالحمد لله . ثمّ الحمد لله .

سميرة : وأيّ فضل لي في ذلك وأنا حفيدتك ؟

الجد : آ . سميرة ، سميرة ! الفضل كل الفضل لمن يحبّ

وفي استطاعته أن يبغض . ولمن يعطي وفي إمكانه أن يمسك . ولمن يقيل عثرة عاثر وفي قدرته أن يمضي في سبيله من غير أن يمدّ إلى العاثر يداً .
بوركت يا ابنتي فمعدنك معدن كريم .

(يدق جرس التلفون فتمضي سميرة إليه)

سميرة : آلو . . . وأين أنت يا سمير ؟ . . أما زلتم مصممين على الذهاب حتى في مثل هذه العاصفة ؟ . . ذلك ضرب من الجنون . . . والبابا هل هو آتٍ معكم كذلك ؟ . . خفّف من حدّتك . . . سنرى . . .

(تسمع قصفة رعد هائلة يرتجّ لها البيت ، سميرة تهرول إلى جدّها وترتمي مذعورة في حضنه)

جدّي . . . جدي ! آه ما أقلّ عقلي وما أضعفني ! إنّني أخشى الرعد ، أخشاه حتى أكاد أفقد رشدي.

الجد : لا تخافي يا ابنتي . لا تخافي يا حبيبتي . إنّه لعام بروق ورعود هذا الذي سيولد عما قريب . وأبناء هذا الجيل أبناء العواصف .

سميرة : لا كانت الوالدة ولا كان المولود ! ألأن الأرض دارت دورة حول الشمس يفقد الناس رشدهم ويمضون يتوقعون أن تهبط السعادة عليهم في قفة من السماء ؟

الجد : لا تلومي الناس يا بنيّتي . فجلهم أولاد يحتالون على

قتل ساعة من الدرس بعدّ الأزرار في ثياب معلمهم ، أو المسامير في الجدران ، أو الأخشاب في السقف . ولولا أنهم تواضعوا على أساليب لقتل الوقت لقتلهم الوقت .

سميرة : (بحدّة) بئست الأساليب يا جدّي . أما كان الأحرى بهم أن يصغوا إلى ما يقوله المعلم لعلهم لا يشعرون عندئذ بوطأة الوقت ؟ أوَما كان من الأجدى لهم أن يعدّوا خطاياهم ضدّ أنفسهم وضد بعضهم بعض بدلاً من أن يعدّوا الثواني والدقائق والساعات ؟

الجد : صحيح ، يا سميرة ، صحيح . ولكن . . .

سميرة : أليس من الجنون أن يهرول الناس في ليلة كهذه الليلة إلى حيث يهدرون أموالهم وقواهم هدراً طمعاً بلذّة يصطادونها في الكاس والطاس ، أو بهمّ يطردونه بالدفّ والمزمار ، أو بساعة يتخدّرون فيها عن كلّ ما كان وما سيكون ؟

الجد : جميل منك يا ابنتي أن تفكري تفكير الشيوخ . وليس جميلاً — وأنت في ريّق الشباب — أن لا تتمتّعي بلذّات الشباب . العبي ، وغنّي ، واطربي يا بنيّتي .

سميرة : (بحدّة أشدّ من ذي قبل) وكيف ألعب وأغنّي وأطرب وقلبي يتلفّت دائماً أبداً إلى الذين لا لعب لهم إلاّ مغالبة الوجع ، والذين غناؤهم بكاء ، والذين طربهم قرقرة البطون الفارغة ؟

الجد : دعيك من هذه الأفكار يا ابنتي ، وافرحي مع الناس بالعام الجديد .

سميرة : لا كان عام جديد لا يحمل الشبع للجائع ، والريّ للظمآن ، والدفء للمقرور ، والعدل للمظلوم ، والبلسم للجريح ، والحريّة للسجين ، والبصر للكفيف . ولا كانت هـذه المهرجانات السخيفة يحييها أهل العزّ والبطر وداعاً لعام يموت واحتفاء بآخر يولد .

الجد : (بصوت متهدّج من التأثّر والعياء) سميرة ! كفاك يا حبيبتي . كفاك يا ابنتي . لقد أصبحت أتمنّى لو أُطبق أذنيّ إلى الأبد على ما سمعته منك الليلة ، وقلبي على ما أثرته فيه من مشاعر . ما كنت أدري أن ربي كان شفيقاً بي إلى هذا الحد عندما جعلني جدّك وجعلك حفيدتي . هاتي أخبريني عن برنامجكم لهذه الليلة . أليس أن سميراً خاطبك منذ هنيهة بهذا الشأن ؟

سميرة : نعم . ولكنني عزمت ألاّ أذهب معهم . إنّه
الجنون بعينه أن نذهب إلى نادٍ يعجّ بالمجانين ،
وفي ليلة كهذه الليلة .
(قصف رعد متواصل)

الجد : ألعلّ والدك ذاهب كذلك ؟

سميرة : أجل . وأبي كذلك .

الجد : وماذا يقول خطيبك إذا أنت تخلّفت عن الذهاب ؟
أليس هو صاحب الدعوة ؟

سميرة : ليقل ما يشاء . فرضاه وغضبه عندي سيّان .

الجد : وأخوك سمير — إنّه ولا شكّ سينقم عليك .

سميرة : وسمير كذلك — نعمته ونقمته عندي على حدّ
سواء . ومن كان لها جدّ كهذا الجدّ كيف تؤثر
سهرة في نادي « نبتون » على سهرة بجانبه ؟

الجد : ولكن جدّك روزنامة تعرّت من كلّ أوراقها — إلا
الأخيرة .

سميرة : والورقة الأخيرة هي التي أقيم لها أكبر الوزن .
فهي الخاتمة التي ترمي إليها كلّ فاتحة . والأمور
بخواتيمها ، أليس كذلك يا جدّي ؟

الجد : (ضاحكاً بشيء من الإجهاد) هه . هه . سميرة !
لكأنّك في شبابك نسخة عن جدك في شبابه . هه.هه.

أوَتدرين يا ابنتي أنّني أحفظ حتى اليوم الورقة الأخيرة من كلّ روزنامة منذ أن كان لي من العمر خمس عشرة سنة ؟ لا تضحكي من جدّك . هه . هه .

سميرة : ولمن عساك ستوصي بها يا جدّي ؟

الجد : لك يا ابنتي . لك . فهي تمثّل خلاصات عمري . وها هوذا عمري يتصل بعمرك . فلا انقطاع في الروزنامة . إيتيني بالورقة الأخيرة من روزنامة هذه السنة .

سميرة : (تذهب وتأتيه بالورقة) إليكها يا جدّي .

الجد : (يطويها ثمّ يطوي يده عليها) ها هي ذي خلاصة عمر طوله ثمانون عاماً أو ثمانون دهراً أو ثمانون لحظة . إنها لوريقة لا أكثر ولكن . . . لله ما أثقلها يا ابنتي ! فهي تحمل خلاصة كلّ الزمان منذ أن كان الزمان . والزمان لحامليه أثقل من كلّ ما في الأرض والسماء من أثقال .

سميرة : إي وربّي . ثقيل هو الزمان . وإنّني لأشعر بثقله في قلبي ، وفي فكري ، وفي كلّ جارحة من جوارحي .

الجد : (بقوّة وحماسة) أما أنا فقد اعتزمت أن أنفض عن

كاهلي كلّ أثقال الزمان . ها أنا ذا أنزع الخوف من قلبي ، والشكّ من فكري ، والوهن من جسدي . فأقول للموت : أهلاً وسهلاً . وللمجهول : ستغدو معلوماً . وللماضي والحاضر والمستقبل : أنا الماضي ، وأنا الحاضر ، وأنا المستقبل . ها أنا ذا أمزق هذه الورقة الأخيرة من وريقات عمري . (يمزقها نتفاً نتفاً) هكذا . هكذا ! (ينهض عن كرسيّه ويتابع بصوت عالٍ ينخفض رويداً رويداً إلى درجة الهمس) .

لا روزنامة بعد اليوم . لا عام يموت وعام يولد . لا ساعات ، ولا أيام ، ولا شهور . لا رغبة تغفو ولا شهوة تستيقظ . لا سباق ولا لحاق . بل ديمومة أوّلها آخرها وآخرها أوّلها .

(متابعاً تمزيق الورقة) هكذا . هكذا ! لن أكون عبدك بعد الآن يا زمان . (يذرو نتف الورقة في يده) هكذا . هكذا أذروك يا زمان . تعال يا موت. لقد صفيت حسابي مع الزمان . تعال . . . تعال . . .

(يقع منهوكاً على الكرسي الذي كان جالساً فيه) .

سميرة : جدي . حبيبي . لا تجهد نفسك إلى هذا الحدّ . ولا تنسَ أنّ قواك إلى نفاد . لا كان الزمان .

الجد : (مرتجفاً من البرد) حُوّ — و — و . . . لُفّيني بحرام من الصوف يا ابنتي . . . وزيدي الوقود في النار . حُوّ — و — و . . .

(سميرة تأتي بحرام وتطرحه على جدّها . قصف رعد . ثم يُسمع جرس الباب. سميرة تذهب وتفتح الباب) .

المشهد الثاني

الجد وسميرة والأب

سميرة : بابا ! . . بابا ! . . كيف تمكنت من المجيء في مثل هذه الساعة ؟ وكيف تركت الماما وحدها ؟ ادخل . ادخل . هات قبعتك . ومن أين تبلّلت إلى هذا الحدّ ؟ أما جئت في تاكسي ؟

الأب : (نافضاً ثيابه وفاركاً يديه) جئت في تاكسي . أكيد . ولكنني تبلّلت من التاكسي إلى الباب . يا لها من عاصفة مجنونة . أخشى أن تنقلب سيلاً جارفاً . لا شكّ في أنها ستفسد على الكثير من الناس سهرة رأس السنة .

سميرة : والماما — كيف حالها ؟

الأب : حالتها طبيعيّة . ولكن موت الطفل أثّر عليها

تأثيراً بالغاً .

سميرة : يظهر أن لا نصيب لي ولسمير بأخٍ ثانٍ .

الأب : أما أنا فلست بعاتب على الحظ أو على الله . فقد رضيت من زمان بك وبسمير . وأين سمير ؟

سميرة : تلفن منذ دقائق أنّه قادم برفقة أمين .

الأب : وقد تلفّن لي كذلك إلى المستشفى قائلاً إن الملتقى يكون هنا ، ثمّ نذهب معاً إلى « نبتون » .

سميرة : أما تظنّ يا بابا أن الخروج من البيت في مثل هذه الليلة ضرب من الـ . . . مجازفة ؟

الأب : بل قولي من الجنون . ولكن ما العمل ، والشباب كان – ولا يزال – يؤثر الجنون على العقل . وأنا ما رضيت أن أترك والدتك في المستشفى لأمضي السهرة في نادي « نبتون » إلاّ إكراماً لك ولأخيك وخطيبك .

سميرة : ذلك لطف منك يا بابا . . .

الأب : وعلى الأخصّ بعدما عرفت أن خطيبك قد حجز لنا الأمكنة منذ أسبوعين ، وأنّه قد أوصى على عشاء ملوكي . وذلك سيكلفه ، بما فيه المشرب والزهر ، نحو الخمسمائة على أقلّ تعديل .

سميرة : خمسمائة ؟ !

الأب : أتستكثرين ذلك ؟ هنالك عيال تدفع الألف والألفين والثلاثة لتشهد حفلة رأس السنة في بعض الأندية والفنادق الشهيرة .

سميرة : ألف . . . ألفان . . . ثلاثة آلاف . . . على سهرة واحدة ؟ ما أرخص الآلاف عند آلاف الناس ، وما أعزّ القرش عند الملايين !

الأب : بالطبع . كلّ ينفق على قدر طاقته . وصاحب المليون غير صاحب المئة .

سميرة : وصاحب الصفر – كيف يعيش وماذا ينفق ؟

الأب : له ربّه . وهو أدرى به .

سميرة : أليس الناس أرباب الناس كذلك ؟ ألست أنت ربّ هذا البيت ؟ أليس العاقل مطالَباً بالجاهل ، والقويّ بالضعيف ، والبصير بالكفيف ، والكبير بالصغير ، والغنيّ بالفقير ؟

الأب : (هازّاً كتفيه) مّ – م – م . . . مطالَب إذا شاء . وغير مطالَب إذا لم يشأ . وليس على الجواد أن يجاري السلحفاة ، ولا على النسر أن يساير البغاث ، ولا على النملة المجتهدة أن تبذل من جناها للجندب الكسول .

سميرة : إذا صحّ ذلك في الجواد والسلحفاة ، وفي النسر

والبغاث ، وفي النملة والجندب ، فما أظنّه يصحّ في كائن يشتمل قاموسه في ما يشتمل على مفاهيم سامية من نوع « العدل » و « الإخاء » و « الحرية » و « المحبّة » و « الرفق » و « المساواة » وغيرها ، وغيرها .

الأب : تلك كلمات في القواميس ، وليس يأبه بها إلاّ الذين أنوفهم أبداً في القواميس . أمّا الحياة العمليّة فبراء من سوسها ومن وساوسها .

سميرة : (بحرقة) بابا ! . . بابا ! . . ارحمني وأبقِ على البقية الباقية في قلبي من إيمان . . . لا تمزّقني بمثل هذه الشفار . . . ارحمني . . .

الأب : يا لك من فتاة غريرة !

سميرة : (تنتفض) قل ما شئت . انعتني بأبشع النعوت . ولكن الظلم يبقى ظلماً ، وهو أقبح ما في الأرض . ويبقى العدل عدلاً ، وهو أجمل ما في الأرض .

الأب : أعيد القول : فتاة غريرة وكفى .

سميرة : غريرة . . . أجل غريرة لأني مؤمنة وأنتم كافرون .

الأب : وبماذا تؤمنين ؟

سميرة : بعدل الحياة .

الأب : إذن من عدل الحياة أن يكون فيها كلّ ما نراه

من عظيم التفاوت بين حظوظ الناس .

سميرة : بل إنّها جعلت كلّ ذلك التفاوت لتعلّم الظالمين كيف يعدلون .

الأب : وما بال الظالمين لا يتعلّمون ؟

سميرة : لأن الظلم ختم على قلوبهم فما يفقهون ما يتعلمون .

الأب : من ذا الذي يفضّ الخواتم عن قلوبهم ؟

سميرة : وددت لو يفضّونها بأيديهم ومن تلقائهم إذن لما كانت هذه القلاقل في الأرض ، وهذه الثورات والحروب .

الأب : منذ كان العالم ، والقلاقل والثورات والحروبَ بعضٌ من حياته . أما العصر الذهبي الذي تحلمين به أنت وأمثالك فما كان يوماً من الأيام غير حلم من الأحلام . دعيك من هذه التخيلات وامضي بدّلي ثيابك . فالوقت قد ضاق بنا . وكاد ينتصف الليل . وسمير وأمين قد يطرقان الباب في أية لحظة . ولن ينتظرا . (سميرَة تبقى مكانها)

ما لجدّك في كرسيّه وقد التفّ بالحرام ؟

سميرة : أحسّ شيئاً من البرد ، فطلب إليّ أن ألفّه بحرام . وأغلب ظني أنّه استدفأ فنام . وكان علينا أن نتكلّم همساً لكي لا نزعجه في منامه «

الأب : لا تخافي عليه . فما من هموم تحفر في دماغه كالّتي تحفر في دماغ أبيك .
(يقرع جرس الباب فتفتحه سميرة . يدخل سمير وأمين لاهثين)

المشهد الثالث

سمير وأمين وسميرة والأب والجد

سمير : (لاهثاً وبصوتٍ عالٍ) سميرة ! يا إلهي ! أما لبستِ بعد ؟

سميرة : (ببرودة) ألعلّني عريانة ؟

سمير : (يستشيط غيظاً) نعم ، نعم . عريانة . عريانة . أفي مثل هذه الثياب تذهبين إلى حفلة رأس السنة ؟ وأين ؟ في نادي « نبتون » حيث يجتمع علية القوم ! البسي ثياب السهرة . حالاً . حالاً . بلمحة الطرف .

أمين : أخشى أن يفوت الوقت .

سمير : (مثابراً في حدّته ولهجته) فات الوقت . فات . أما قلت لك إنها ستؤخّرنا ؟ ذلك هو شأنها في كلّ مرّة تصمّم على الذهاب إلى نزهة أو زيارة أو حفلة . بل ذلك هو شأن كلّ النساء . يا إلهي ! لا تقفي كالصنم . تحرّكي ! أما ترين الساعة ؟

أمين : نعطيك ربع ساعة يا سميرة . ألا يكفيك ربع ساعة؟

سمير : تحرّكي ! في ربع ساعة يولد مليون ويموت مليون . تحرّكي أسرعي !

(سميرة تبقى مكانها)

الأب : وما الذي أخرّكما عن المجيء حتّى الآن ؟

أمين : هذا الطقس الذي ما رأيت أكرب منه في حياتي .

(قصف رعد)

الأب : ما قولكم لو نستقبل العام الجديد ههنا ؟

سمير : (يكاد يخرج من جلده) هنا ؟ (متهكماً) حقّاً إنه لرأي غاية في الصواب . هنا الموسيقى الساحرة ، والأزياء الخلاّبة ، والأنوار اللألاءة ، والكؤوس المشعّة ، والأعين الغمّازة ، والثغور الضحّاكة ، والقدود الميّاسة . هنا البهجة السكرى بالأنس والحبور . . . ومن ثمّ فهذا الرجل (مشيراً إلى أمين) قد كرّس مبلغاً لا يستهان به لهذه السهرة .

الأب : ما قولك يا أمين لو تَلْفَنْتَ إلى النادي وألغيت توصياتك بشأن السهرة ؟

سمير : يا لها من حكمة أوحت إليك بهذا الرأي !

أمين : هذا مستحيل . شرفي لا يطاوعني . في المسألة شرف كذلك .

سمير : أكيد . المسألة مسألة شرف . (إلى سميرة) ما بالك كالمسمّرة في مكانك ؟ تحرّكي . كل دقيقة تفوتنا يفوتنا معها عالم من اللذّة والمتعة . فنادي «نبتون» قد أعدّ لهذه الليلة برنامجاً لا مثيل له على الإطلاق .

أمين : يكفي أنّه قد أنفق على تزيين المسرح لا غير أكثر من عشرة آلاف .

سمير : وعلى الأنوار !

أمين : أما على الأنوار وعلى الأوركسترا وعلى المغنين والمغنيات ، والراقصين والراقصات ، فلا تسل .

سمير : آ آ . إن لعابي ليسيل في فمي عندما أفكّر في كلّ ذلك . وإن مرارتي لتنشقّ عندما أرانا واقفين ههنا كالمجاذيب نضيع الوقت مع آنسة متحجّرة الفكر ، فاقدة الشعور . سميرة ! تحرّكي !

أمين : ألعلّك لا تريدين مرافقتنا يا سميرة ؟ أم لعلّك تؤثرين البقاء في البيت ؟

الأب : دعوها وشأنها . فما يدري ما بها غير الله .

سمير : أنا أعرف ما بها . إنّه كيد النساء . ولكنّك ستتحمّلين مغبّة هذا الكيد يا سميرة . اصطبري . اصطبري .

الأب : سميرة ! أذاهبة أنت ؟ أجيبي بنعم أو لا . لا يليق بك أن تفسدي على شقيقك وخطيبك سهرة كهذه السهرة لا تكون غير مرّة في السنة .

سميرة : وأنت يا بابا — أذاهب أنت ؟

الأب : إذا ذهبتِ ذهبتُ .

سميرة : وإن لم أذهب ؟

الأب : (متردّداً) مّ — مّ — مْ . . . . لا أذهب .

سميرة : بل اذهب ودعني في البيت مع جدّي . فقد يستيقظ قريباً ، وليس من يقوده إلى فراشه .

الأب : ما أظنّه يستيقظ قبل الصباح .

سمير : (وقد عيل صبره) كنّا بعقدة واحدة فإذا نحن بعقدتين . كنّا في شكّ من أمر سميرة وها نحن في شكّ من أمر أبي سميرة . « بصوت عالٍ » أمين ! لن نضيع دقيقة بعد . هيّا بنا . وسنصطاد لنا رفيقتين من الشارع . هيّا بنا !

(يأخذ بيد أمين ويهرع معه إلى الباب فيفتحه بحركة عصبيّة ، ثمّ يلتفت إلى الوراء وينادي بأعلى صوته مهدّداً) سميرة — ه — ه ! ! ! (ويطبق الباب بعنف يرتجّ له البيت) .

الأب : مجنون . كاد يكسر الباب. انظري يا سميرة. لقد وقع

الحرام عن جدك من عظم الرجّة . رد يه كما كان .

سميرة : (تتقدّم من جدّها ثمّ تهتف مذعورة) بابا ! . .

الأب : ما بك يا سميرة ؟

سميرة : (بلهفة واضطراب) جدي .. حبيبي .. نور قلبي !

الأب : (يدنو من والده) ماذا جرى ؟ (يهزّ والده من كتفيه) أبي ! أبي ! . . (بانسحاق) إيـيـيه . . . سأبيت الليلة بغير أب . . .

سميرة : (تصرخ بتفجّع) جدي . جدي . جدي ! . . (تجهش بالبكاء)

الأب : إيييه . . . أجيال جهيضة . وأجيال مريضة . وأجيال مهيضة . أجيال تشد الرحال . وأجيال تشد الأطناب . والأرض تدور والزمان لا ينفكّ يحدو القافلة .

سميرة : (تنشج) جدي جدي . . .

الأب : لا تبكيه يا ابنتي . بل قولي هنيئاً له . فقد كان جيلا في ذاته .

سميرة : أجل هنيئاً له . فقد مزّق ورقته الأخيرة . (تنشج . تسمع ضجة من الخارج ـ صفّارات معامل وبواخر وأجراس كنائس . زمارات سيارات . هتافات صاخبة . تدقّ الساعة اثنتي عشرة دقّة) .

السّتار

أبو بطة

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهبِ الريح
دروب

أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)
The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve
Other Stories.